سلامه موسى

حرية الفكر

وابطالها في التاريخ

حرية الفكر
وأبطالها فى التاريخ

سلامه موسى

حرية الفكر

وأبطالها فى التاريخ

سلامه موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف

الطبعة الأولى ١٩٣٥

التسامح

كان ابناء القرية * يعيشون هـــائين في وادي الجهل السعيد وحولهم من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب قد ارتفعت هضاب التلال الدائمة

وكان مجرى المعرفة الصغير يسير هوناً في اخدود عميق بال وكان يتبدد عندما يبلغ البطائح والمناقع

ولم يكن شيئاً يذكر اذا قيس الى الأنهار ولكنه كان يكفي القرويين حاجاتهم الوضيعة

وفي المساء عندما كانوا يسقون ماشيتهم ويملأون جرارهم كانوا يقنعون بالجلوس ويتطعمون الحياة

وكان « الكبار العـــارفون » يحضرون من زواياهم المعتمة حيث كانوا يقضون نهارهم في التأمل في صفحات خفية من كتاب قديم

وكانوا يغمغمون بكلمات غريبة لأحفادهم ، اولئك

---

* قصة رمزية

الذين كانوا يؤثرون على غمغمتهم اللعب بالحصى المجلوب من بلاد بعيدة

ولم تكن هذه الكلمات في كثير من الاوقات واضحة .

ولكن كان قد كتبها قبل ألف عام شعب مجهول .

ولذلك كانت هذه الكلمات مقدسة .

ولأن الناس في وادي الجهل كانوا يقدسون كل شيء قديم فأولئك الذين كانوا يتجرأون على معارضة حكمة الآباء كان جميع الناس الابرار يتجنبونهم

وهكذا عاشوا في سلام

وكان الخوف يلازمهم ويتساءلون على الدوام : ماذا يحدث اذا نحن حرمنا من الاشتراك في خيرات الحقل ؟

وكانت تتلى عليهم في همس عندما يخيم الظلام في ازقة القرية الصغيرة قصص غامضة المعنى عن الرجال والنساء الذين تجرؤا على ان يشكوا ويسألوا

وكان يقال انهم ذهبوا ثم لم يعودوا

وكان يقال ان عدداً قليلاً حاولوا أن يتسلقوا الهضبة التي تحجب عنهم الشمس

ولكن هذه عظامهم البيضاء مطروحة عند سفح الهضبة.

وجاءت السنون ومرت السنون

وعاش ابناء القرية في وادي الجهل الامين

* * *

ثم من الظلام أقبل انسان

وكانت أظافر يديه قد تمزقت

وكانت قدماه ملفوفتين بالخرق،وهي حمراء قد تلطخت بالدم بعد مشاق السير الطويل.ووقف على عتبة الباب لأقرب كوخ اليه وطرق الباب

ثم اغمي عليـــه فحملوه في ضوء شمعة مرتجف الى سرير . وفي الصباح تعالم الناس كلهم في القرية « انه قد عاد »

ووقف الجيران حوله وهم يهزون الرءوس . وكانوا يعرفون من قديم ان هذه هي الخاتمة

كانوا يعرفون أن الهزيمة والتسليم ينتظران اولئك الذين يتجرأون على الخروج عن سفح الجبل

وفي احدى زوايا القرية قعد « الكبار العـــارفون » يهزون رؤوسهم وينطقون بكلمات من نار

ولم يكونوا يميلون الى القسوة ولكن الناموس ناموس . ولقد خالف هذا الرجل وأخطأ في معارضة رغبات هؤلاء « الكبار العارفين »

والآن يجب محاكمته عندما تبرأ جروحه

وكانوا يرغبون في محاكمته باللين

وكانوا يتذكرون عين أمه وكان فيها لمعة غريبة كأنها تحترق . وتذكروا أيضاً المأساة التي وقعت لأبيه اذ ضل في الصحراء قبل ثلاثين سنة

ولكن الناموس هو الناموس ويجب الخضوع له،وعلى

« الكبار العارفين » الا يفوتهم ذلك

وحملوا هذا السائح الى السوق ووقف حوله الناس وهم في صمت الوقار

وكان لا يزال مضعضعاً قد اضناه التعب والعطش، فأمره « الكبار » أن اقعد . فأبى

وأمروه بأن يلزم الصمت، ولكنه تكلم

ثم أدار ظهره الى « الكبار » والتفت الى اولئك الذين كانوا منذ قليل اخوانه

فقال وكأنه يتضرع اليهم : « اصغوا اليّ . اصغوا اليّ، وابتهجوا . لقد ذهبت الى ما وراء الجبال وهأنذا قد وافيتكم منها . ولقد وطئت قدماي أرضاً جديدة . وصافحت أيدي اناس آخرين . ورأت عيناي أشياء عجيبة

« اني حين كنت طفلاً كانت حديقتنا هي كل العالم الذي أعيش فيه

« وكان حول الحديقة من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب هضبات قد قامت منذ بدء الزمن

« وكنت عندما أسأل أحداً : ماذا وراء هذه الهضبات؟ كنت اجاب بهز الرؤوس وبالصمت . وكنت اذا الححت في السؤال اخذوني الى العظام البيضاء، عظام اولئك الذين تجرأوا على تحدي الآلهة

« وكنت أصيح وأقول : هذا افك . ان الالهة تحب الشجعان . فكان « الكبار العارفون » يأتون الي ويقرأون لي من الكتب المقدسة . وكانوا يقولون ان كل شيء في السماء وفي الارض مرسوم بالناموس . وإن هـــذا الوادي بنص الناموس لنا نملكه ونعيش فيه . لنا حيوانه وزهره وثمره وسمكه نفعل بها ما شئنا . اما الجبال فللآلهة . وما وراء الجبال يجب ان يبقى مجهولاً حتى آخر الزمان

« هكذا كانوا يقولون وكان قولهم كذباً . وقـــد كذبوا عليّ كما يكذبون عليكم الآن

«الا اني اقول لكم إن في الجبال مروجاً . وهي مروج ممرعة كأحسن ما رأيتم . وهناك ناس من دمنا ولحمنا . وهناك مدن تزهى بمجد آلاف السنين

« لقد عرفت الذي يؤدي بنـــا الى وطن أفضل من وطننا هذا . ورأيت وعود الحياة السعيدة . فامشوا ورائي وأنا أقودكم فإن الالهة تبتسم هناك كما تبتسم هنا وفي كل مكان آخر »

* * *

ثم سكت . فضج الواقفون وعجبوا

وصاح « الكبار العارفون » : « زنديق . هذه زندقة ورجس . يجب ان يعاقب . لقد جن . انه يحتقر الناموس الذي كتب قبل ألف عام . لقد استحق الموت »

ثم تناولوا أحجاراً ثقيلة وشدوا عليه رجماً حتى قتلوه

ثم أخذوا جثته فألقوها عند سفح الجبل، وخلفوها هناك كي تبقى نذيراً يحذره كل من يشك في حكمة القدماء

* * *

وحدث بعد ذلك بقليل جفاف عظيم . فـأن مجرى المعرفة الصغير جف، وماتت المـاشية من العطش وأمحلت الغلات في الحقول. وكانت هناك مجاعة عظيمة شملت وادي الجهل كله .

ومع ذلك فان « الكبار العارفين » لم يفطنوا : فأنهم تنبأوا بانقشاع المحنة لأنه هكذا وعدتهم كتبهم المقدسة .

ثم هم أنفسهم لم يكونوا في حاجة الى طعام كثير اذ كانوا قد طعنوا في السن

* * *

ووافى الشتاء فهجر الناس القرية . وهلك نصف السكان لقلة الطعام .

ولم يكن ثم رجاء لاولئك الذين لم يموتوا الا في مـا وراء الجبال

ولكن الناموس كان يقول « لا » ويجب الخضوع للناموس

* * *

وفي احدى الليالي حدثت ثورة

وابتعث اليأس الشجاعة في أولئك الذين كان الخوف قد أسكنهم . واحتج « الكبار العارفون » احتجاجاً ضعيفاً. فنحوهم عنهم . وشكا هؤلاء حظهم وصاروا يندبون ولاء

أبنائهم، ولكنهم عندما رأوا آخر مركبة تنقل آخر السكان وقفوها وركبوها

وشرع في المسير الى المجاهل

* * *

وكانت قد مضت الان سنون عدة على رجـــم ذلك السائح الجريء، ولم يكن من الهين ان يهتدوا الى الطريق التي اخبرهم عنها

فهلك منهم كثيرون جوعاً أو عطشاً قبل ان يجـــدوا أول معالم الطريق

ومن هناك تمهدت الطريق وقلّت مشاقها

وكان ذلك المرجوم قد أعلم طريقاً لبني وطنه في وسط الغابات والصخور

وأدت الطريق في النهاية الى مروج نضرة

وعندئذ أخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض وهم سكوت وقـــالوا :

« لقد كان على صواب وحق . وكان « الكبـــار العارفون » على خطأ وباطل »

« لقد صدق وكذبوا

« ان عظامه بالية عند سفح الجبل ولكن هؤلاء « الكبار» يقعدون الآن في مركباتنا وينشدون أناشيدهم العتيقة

« انه انقذنا ونحن ذبحناه

« وانا لنأسى على ما حدث ولكننا ما كنا ندري ...»

ثم اطلقوا خيولهم وثيرانهم في المراعي وابتنوا لانفسهم
منازل وزرعوا الحقول وعاشوا سعداء دهراً طويلا بعد ذلك

* * *

وبعد سنين حاولوا ان يدفنوا ذلك المرجوم في البناء
الشامخ الذي كان خاصاً بسكنى « الكبار العارفين »

فسار موكب يحفه الوقار الى ذلك الوطن المهجور فلما
بلغوا المكان الذي القيت فيه جثته لم يجدوا رفاته هناك

فان واحدا من بني آوى قد جرّه الى جحره

فوضعوا عندئذ حجراً صغيراً في أول الطريق الذي
هداهم ونقشوا عليه اسم ذلك الرجل الذي تحـــدى قوى
الظلام والجهل حتى يفتح لقومه طريق الحرية . وقالوا في
نقشهم ان الخلف قد اقام هذا الأثر برهاناً على شكرانه

وكما كان في البدء ، كذلك هو الان . ولكنه سوف
لا يكون كذلك المستقبل

(مترجمة عن هندريك ويلم فان لون)

المقدمة

لم نسمع قط ان انساناً تقدم للقتل راضياً أو كدنفسه حتى مات في سبيل أكلة شهية يشتهيها او عقار يقتنيه وانما سمعنا ان ناساً عديدين تقدموا للقتل من أجل عقيدة جديدة آمنوا بها ولم يقرهم عليها الجمهور أو الحكومة . وسمعنا أيضاً عن ناس ضحوا بأنفسهم في سبيل اكتشاف أو اختراع

فما معنى ذلك ؟ معنـــاه أن شهوة التطور في نفوسنا أقوى جداً من شهوة الطعام أو اقتناء المال . وأن هذه الشهوة تبلغ من نفوسنا اننا نرضى بالقتل في سبيل ارضائها، وأننا لا نقوى على انكارها وضبطها . فالحياة دأبها التحول من أدنى الى اعلى ، والتجدد باكتساب عناصر مما حولها، وتنقية بعض ما فيها مما هي في غنى عنه . ونقول بعبارة أخرى إن من دأبها التطور . فاذا وجـــدت ان انظمتنا الاجتماعية قد سدت عليها أبواب التطور فـــأنها لا تنفك

تحاول فتحها أو تموت دونها راغبة في ما هو أرقى منها. والجمود هو طبيعة المؤسسات الاجتماعية بينما التطور هو طبيعة الحياة ، فاذا اتسعت الهوة بينهما عمدت الحياة الى الخروج والثورة والتحطيم .

وهذا هو معنى استشهاد الانبياء والعلماء والفلاسفة وغيرهم في سبيل آرائهم الجديدة التي ينشرونها على الناس . فسقراط يشرب السم راضياً لأنه يشعر ان شهوة التطور التي تنزع به الى العلا اقوى من شهوة البقاء . والمسيحيون يرضون بان تأكلهم السباع في ملاهي الرومانيين ويؤثرون هذا القتل المرعب على البقاء جامدين راضين بديانة الآباء . والعالم يقعد أمام بوتقته يحاول اكتشاف حقيقة علمية قد بصر بها قلبه فيكدح راضياً بالجهد والفقر والموت حتى يبلغها . وكل هؤلاء آلات تستعملهم الحياة لأغراضها العليا وتحقق بهم ناموسها العظيم وهو التطور

وليس الاضطهاد الذي أصاب حرية الفكر والاستشهاد الذي رضي به الاحرار سوى صراع اصطرع فيه الجمود والتطور . جمود القاعدة الاجتماعية مع تطور الحياة . والفوز على الدوام للتطور على الجمود

***

وقد يظن القارىء ان المفكر ما دام يفكر فقط يكون تفكيره حراً لا يمكن احداً ان يدخل الى ذهنه ويعوقه عن التفكير في أية ناحية يريد . ولكن الواقع ان التفكير

لا يكون حراً طليقاً حتى نستطيع البوح والافضاء به الى غيرنا ، لان الفكرة طاقة ، أي قوة من قوى الذهن ، لا تزال منحبسة شأنها شأن جميع القوى المنحبسة تعذب الذهن حتى تنصرف بالعمل . والانسان كالحيوان طبع على ان لا يخطر بباله خاطر حتى ينصرف الى عمل وحركة ؛ وجهاز الحيوان العصبي لم يخلق في الاصل إلا لخدمة حركات الجسم . وذهن الحيوان عالياً كان أم دانياً في سلم التطور هو جزء من هذا الجهاز ؛ فالخواطر الذهنية هي قوى عصبية اذا حبسناها آلمتنا وعذبتنا واحياناً تؤدي الى الهوس بل الجنون ، وجنون العاشق الذي لا يجد في معشوقته تلبية لعواطفه يرجع الى ان خواطر العشق قد انحبست في ذهنه لا تجد منصرفاً

وكل منا يعرف أن في الافضاء والبوح منفرجاً للصدور ، وان همومنا تخف اذا شاركنا غيرنا فيها . والخواطر العلمية او الفلسفية تؤذي صاحبها وتعذبه اذا لم يجد لها منصرفاً بالبوح بها الى الناس . لأنها تبقى في نفسه كالهم الرابض لا يستريح منه حتى يفضي به الى الناس . فحرية الفكر اذن حرية البوح بالقول.

ولكن التاريخ يثبت أن معظم الذين باحوا بما في صدورهم مما اعتقدوا حقيقة علمية أو فلسفية أو دينية نالوا من الاضطهاد بالتعذيب أو الحبس أو القتل الشيء الكثير الذي لم يخلُ منه قرن منذ اكثر من الفي سنة . فما علة ذلك ؟

العلة الاولى ان الناس مطبوعون على الكسل والاستنامة الى ما ألفوه من العادات الفكرية والعملية ، فالانسان في أحوال معيشته لا يخترع كل يوم وانما يجري على عـادة أمسه فيسهل عليه عمله ، فاذا ابتدع أحد بدعة جديدة في اللباس أو الطعام أو الغناء أو الشعائر الدينية أو حـتى الاسلوب الكتابي فانه يصدمنا لأول وهلة ويكلفنا تفكيراً أو جهداً كنا في غنى عنه لولا بدعته

والعلة الثانية ان المصلحة المالية والمعاشية كثيراً ما تكون متعلقة بالعادات المعروفة ، فتبديلها يضيع على بعض الطبقات هذه المصلحة . فالغني يكره الاشتراكية لمصلحة واضحة . والقاضي الذي يتناول من المال نحو الف وخمسمائة جنيه كل عام يحكم بالسجن على الخطيب الاشتراكي ويلـذ له النطق بالحكم لانه لا يرى فيـه خصماً للعدالة فقط بل خصماً لشخصه ايضاً ، فالاشتراكية بدعة تصطدم بمصالح الاغنياء ولذلك ليس الناس أحراراً في البوح بأفكارهم عنهـا الآن في معظم أقطار العالم

وعلة ثالثة للتعصب واضطهاد الافكار الجديدة هي الجهل . فان الذي يجهل نظرية التطور ويؤمن بأن ابـا البشر آدم وامهم حواء يكره كل من يقول بهذه النظرية الملعونة . والذي يجهل اللغات الاوروبية من شيوخنـا يكره كل من لا يقول بأن اللغة العربية افصح اللغات واشرفها ولا يمنعه من الاضطهاد إلا عجزه

وعلة رابعة هي الخوف ، فأن العجوز مثلاً قد تؤمن بالاولياء والقديسين وتتشفع بهم ، ولا يمكن وهي في هذه الحال أن تطالعها بحرية المناقشة في ما يعزى الى هؤلاء الاشخاص من الكرامات لأن خوفها يمنعها من ان تطلق لذهنها هذه الحرية . ومن هنا ايضاً تدرك علة تقييد الحرية مدة الحروب لان الخوف من العدو يزيد وساوس رجال الدولة

واحياناً تجد هذه العلل الاربع مجموعة بعضها أو كلها في طائفة من الناس ؛ فاذا كان للدولة دين رسمي صار الطعن في الدين أو انتقاده داعية الى تألب طوائف عديدة للذب عنه ، منهم العامة الذين يحثهم خوفهم من الدين على اضطهاد المنتقد ، ومنهم الكهنة الذين يخشون على مصالحهم ، ومنهم جميع افراد الامة تقريباً الذين يرون ان السير على سنن السلف أيسر على قلوبهم من ابتداع البدع ، لانه يجب ألا ننسى ان الجماعات بحكم بيئتها مطبوعة على الجمود

ولكن البدع تفوز في النهاية لأنها وان كانت تبدأ مع قلة من الامة إلا انها لما فيها من ميزات تتغلب على العادات الموروثة . وكل تقدم للانسان مصحوب ببدعة ولولا ذلك لما تم اختراع أو اكتشاف ، وكلنا يتألم عند اصطناعنا بدعة جديدة لاول مرة ولكن معرفتنا بفائدتها تجعلنا نرضى بهذا الألم الذي يزول بالاعتياد والرياضة .

الجزء الأول

حرية الفكر فى العصور القديمة

أول القيود

لما شرع الانسان يخرج من الغابة ويزاول الزراعة أخذ يعتقد العقائد عن الارض والسماء وأصل الناس ومصيرهم ودواعي الشؤم واليمن وجلب السعادة لنفسه والأذى لغيره، وكانت عقائده الاولى بعيدة عما نفهمه الآن من الدين . فنحن نفهم الان من الدين ان الماء يطهر وأنه لذلك سبيل الوضوء للمتدين . ولكنه كان يفهم أن الماء أصل النبات وأنه غسول يغتسل به الجسم من الاقذار . أي انه بـدأ ينظر نظراً علمياً للاشياء ، نظر الحس والمشاهدة . فلما تقادم الزمن أخذ يتصوف في نظره وينسب للاشياء المحسوسة أغراضاً اخرى. فكان مثلا يعتقد انه اذا أكل الخنزير صار لحم هذا الخنزير في لحمه هو فمن البديهيات انه يصير هو نفسه خنزيراً . فامتنع لذلك عن أكل الخنزير. وكان في نظره هذا عالماً وان كانت وسائل التحقيق لديه غاية في الضعف . ولكن جاء الخلف فتصوفوا وحرموا الخنزير وبنوا تحريمهم على آراء

دينية صوفية

وكان عند الانسان الاول كما لا يزال للآن عنــد المتوحشين جملة محرمات كلها «طبُو» Tabu . فالخنزير «طبو» يجب الا يمس . وبعض الحيوان او الطيور «طبو» يحرم قتلها وصيدها . وزوجة الرجل او زوجاته حلال له «طبو» لغيره أي حرام على هذا الغير أن يمسهن . وما زلنا نسمي النساء « حريماً » اي يحرم على غــير زوجهن أن ينظر اليهن لانهن «طبو» له

والطبو أصناف عديدة . ذكرنا منها مثال الخنزير الذي يجب الا نأكله لئلا يتجسم في جسمنا . فهو لذلك نجس. وقد يكون طائراً تتوهم القبيلة أنه أبوها فيجب الا يقتل رعاية لأبوته فعندئذ يسمى « طوطما » . وقد يكون ملكاً للغير كالنساء يحرمن على غير زوجهن

فالطبو هو أصل الآداب الاخــلاقية وهو ايضاً أول قيود الحرية الفكرية . وقد كان في الاصل يعبر عن نظر علمي فج، لم ينضج، استحال لقلة وسائل التحقيق والعلم الى عقيدة دينية. فلما ارتقت الامم بعض الارتقاء وصارت الى طبقات نشأت فيها طبقة الكهنة السحرة الذين يعرفون الناس بأنواع الطبو فزادت انواع الطبو بذلك جموداً وتعددا لأنه انضاف الى قوتها قوة مصالح الكهنة . ولا يزال في العقائد الدينية الفاشية الآن انواع جديدة من الطبو . فالبقرة في الهند لا تؤكل عند الهندوكيين . والخنزير كذلك عند اليهود .

وأول انواع الطبو هو « الطوطم » اي طـائر أو حيوان أو شجرة يحرم على افراد القبيلة ان يمسوها أو أن ينظروهـا أو أن يأكلوا شيئاً منها . وتعتقد القبيلة ان الطوطم هو أصلها الذي تنتمي اليه فله لذلك حرمة . ثم يرتقي الطبو من ذلك الى ان يصير نواهي ادبية تنهى الناس عن بعض الأفعال . فوصايا موسى الصحية مثلا هي أنواع من الطبو

وقد يظن البعض أن المتوحش أكثر حرية منا . ولكن الواقع أنه محوط بأنواع مختلفة من الطبو تقيد فكره وتمنعه من ان يصيد هذا الحيوان ومن أن ينطق بهذه الكلمة ومن أن ينظر الى هذه الشجرة وهلم جراً . وذلك لأنهـا كلها تقريباً طبو

وعند ظهور الآلهة وانتظام العبادة ازداد الكهنة قـوة وجمدت نواهي الطبو ، فتقيد فكر الانسان . انما يجب أن نذكر أن الآلهة القديمة لم تكن في قوة آلهة الاديـان الحاضرة لأنها لم تكن قادرة على كل شيء كما يعتقد الآن المسيحي أو المسلم في آلهه . فكان بين الانسان وبين ربـه مجال للفكر في جملة موضوعات لا يستطيع أهل الأديان الحاضرة أن يفكروا فيها ما لم يتناقضوا مع ما ذكرته الآلهة

وخلاصة كلامنا هو :

١) ان الانسان القديم كالمتوحش الحديث لم يكن حر الفكر لأن نواهي الطبو كانت كثيرة

٢) ان الانسان بدأ ينظر للاشياء التي حوله نظراً علمياً ساذجاً . ولكنه لقلة وسائــل التحقيق كان نظره فجاً . فلما تقادم الزمن جمدت آراؤه العلمية فصارت عقائد دينية . فالماء في الاصل غسول يغسل به فلما تقادم الزمن صار يستعمل للطهور والوضوء

٣) كانت الآلهة القديمة غير قادرة على كل شيء . فكان في عجزها هذا بعض التيسير للحرية الفكرية . وعجزها هذا يرجع الى نظر الانسان العلمي ، لأن كل آله قديم كان في الاصل شخصاً حيــاً . فلما مات بقي من حوله من الاحياء يعتقدون أنه حي غائب . لأنهم لم يفهموا طبيعة الموت . فلم ينسبوا اليه القدرة على كل شيء لان هذه الصفة التي لا يمكن ان تنسب الى الاحياء لا يمكن ايضاً ان تنسب اليهم بعد غيابهم في ما نفهمه الآن بأنه موت

٤) لما ارتقى الانسان بعض الرقي خفت سلطة الطبو واستأثر الآلهة بالسلطة واندمج ما تبقى من نواهي الطبو في الديانات الالهيــة فاتسعت بذلك الحرية الفكرية بعض الاتساع

* * *

وقبل ان نختم هذا الفصل ينبغي أن نؤكد شيئين للقارىء يجب عليه ملاحظتها في هــذا الكتاب : أولها ان النظر الديني كان في الاصل نظراً علمياً لا شائبة فيه يقبل الجدل

والتمحيص وانه صار بعد ذلك نظراً دينياً قائماً على الجزم لقلة وسائل التحقيق عند الانسان الاول ولان طبقة من الناس رأت من مصلحتها أن تروج العقائد الدينية وتعيش منها . ولذلك كانت المعابد قديماً امكنة لدراسة العلم وكان الكاهن عالماً

والملاحظة الثانية أن الدين في نفسه لا يمكنه ان يضطهد العلم . وانما الاضطهاد يرجع الى الكهنة . ولكن الكهنة أنفسهم لا يمكنهم ان يضطهدوا احدا ما لم تكن السلطة في أيديهم . فالذي يقيد حرية الفكر والذي اضطهد الناس هي السلطة الحكومية . وما دام الدين بعيداً عن الحكومه فأنه لا هو ولا كهنته يمكنهم ان يضطهدوا احداً . اما اذا صارت الدولة والدين جسماً واحداً أمكن رجال الدين ان يضطهدوا من يشاؤون وأن يقيدوا الفكر كما يشاؤون . فالاضطهاد الذي كابده الناس في الماضي من رجال الدين انما كابدوه لأن هؤلاء الرجال كانوا قابضين على أزمة السلطة في الدولة . ونحن في ما يلي من فصول الكتاب اذا ذكرنا الاضطهادات الدينية لا نذكرها عيباً على الدين في ذاته بل تقريراً لما يفعله الحاكم متسلحاً بالدين

ورجال الحكم أشغف بالدين واكثر استعمالاً له سلاحاً يرهب به الناس من رجال الدين بالحكم . بل ربما نزع رجل الدين الى الزهد ولكن رجل الدولة والحكومة يحتاج

الى الدين لكي يستطيع أن يخيف به العامة . لأن الدين يزيد سلطانه فلا يُقصر على هذا العالم بل يمتد الى العالم الثاني . ولذلك نجد ان رجلاً مثل ميكافيلي يقول إنه يجب عــلى الامير ، أي الحاكم ، حماية الدين ولو كان هو نفسه لا يؤمن به لأن الدين يعاونه على حكم الجماهير وعلى تثبيت سلطانه

الاغريق والحرية الفكرية

كان الدين عند القدماء أمثال المصريين والكلدانيين مثوى علوم هذه الامم، وكانوا قانعين به يفسرون جميع الظواهر الكونية والطبيعية به . وكان عند هذه الامم شيء كثير من العلوم والمعارف ولكنهم لم يضعوها في مكان الاعتراض على الدين . فالبردي الذي ينسب الى الفرعون اهمس مثلا يثبت ان المصريين عرفوا شيئاً عظيماً في الرياضة قبل سنة ١٧٠٠ ق . م . وكذلك الشهور القبطية تثبت المدى العظيم الذي بلغوه في الفلك

وكان في الفرات مراصد في القرن الثامن قبل الميلاد . وقد عرف المصريون شيئاً كثيراً عن التشريح وعن النباتات

فالامم القديمة مارست العلوم ولكنها لم تنزع نزعة علمية ولم تحاول ان تفسر الظواهر الكونية والطبيعية بالعلم وحده دون الدين . وبعبارة اخرى نقول ان هذه الامم لم تصنع « النظريات » العلمية فكانت علومهم أشبه شيء

بعلوم القرون الوسطى في اوربا : مجموعات من المعارف ليس لها خطة عامة ولا غاية نهائية ولا بحث عن اول الكون ونهايته . ولذلك لم يضطهد رجال الدين في هذه الامم القديمة احداً

أما الاغريق فيشذون عن الامم القديمة بالنزعة العلمية . فهم لم يقتنعوا بجمع المعارف بل وضعوا النظريات . والنظرية هي كل شيء وأهم شيء في العالم لأن مداها ابعد من المعارف المجموعة . وهي في نفسها ضرب من الاقتصاد الذهني يسهّل جمع المعارف والاستغناء احياناً عن بعضها . فالأغريق اول امة نزعت نزعة علمية . وقد ساعدها على ذلك شيئان :

أولهما انها لم تكن تؤمن كاليهود بأله واحد قادر على كل شيء اذ كانت آلهتها عديدة وكانت ذات صفات انسانية تنتصر وتنهزم وتعجز عن تحقيق اغراضها . ولذلك لم يكن لها السلطان القاهر الذي كان لآله اليهود مثلاً على اليهود . فلم يجد العلم حرجاً من ان يفتات احياناً على حقوق الآلهة ، وان كان قد ناله ايضاً شيء من الاضطهاد

والثاني ان ديانة الاغريق لم تصر في وقت ما شريعة. وذلك لأنه اذا كان دينها شريعة التعامل فانه عندئذ يصير جزءاً ملتحماً بالحكومة وبالقضاء فيدمغها بالجمود ويحول دون حرية الفكر ودون تطور الامة المدني . لأن التطور هو التبدل والتحول ، والدين هو غالباً التقاليد التي لا تتبدل

ولا تتحول

وأول ما نسمع عن النظـــر العلمي البحت في القرن السادس قبل الميلاد . ففي سنه ٦٤٦ مات « طاليس » وكان يقول بأن أصل العالم ماء . وصدم الدين لأول مرة بقوله أن الآلهة لا شأن لها في خسوف القمر في حرب الليديين والفرس . وأن هذا الخسوف ظاهرة جوية مثل سائر الظواهر

وفي سنة ٤٢٨ ق. م. مات « اناجزاجوراس » وهو أول من نعرفه ممن اضطهدهم الدين . فأنه كان يعـــلم تلاميذه بأن الشمس ليست مركبة يركبها الآلهة كما تقول الديانة بل هي قطعـــة من نار وأن القمر يحتوي على جبال . وبحث في المـــادة الاولى التي يكون منها الكون بجميع أجرامه وكاد يحدث نظرية التطور فتألب عليه رجال الدين وحبسوه في اثينا ثم نفوه منها فمات في آسيا الصغرى

وهناك رجل آخر يدعى « بروتاجوراس » مات سنة ٤١٥ ق. م. وهو يعتبر أول انسان ذكره التاريخ صرح بكفره بالآلهة. فقد ذهب الى اثينا وأخذ ينشر بين الناس آراءه الدهرية ، وخلاصتها أن الانسان هو المقياس الاصلي لكل شيء في العالم، وأن العمر أقصر من أن ينفق في البحث عن وجود الآلهة أو عدمه ، وأننا يجب أن نوجه نشاطنا الى تحسين العالم وزيادة متعة . وكانت اثينا تعاني عقابيل

حرب طاحنة بينها وبين اسبارطة فلم تكن في حال تسمح لها بأغضاب الآلهة . وعلى ذلك قبض على بروتاجوراس وقدم للمحاكمة . ولكن هــذا الكافر لم يكن يتطعم الاستشهاد في سبيل العلم والحرية ففر من حبسه ونجا بنفسه في سفينة تقصد الى صقلية . وتحطمت السفينة وغرقت وغرق معها

ومنذ ابتــداء القرن الرابع قبل الميلاد نرى النزعة العملية تقوى في بيئة موافقة يتخللها قليل من الاضطهاد الديني . ففي سنة ٤٠٠ أو قريباً منهــا نجد مؤلفاً غير معروف اسمه لنا الآن يؤلف كتاباً عن الفالج فينكر فيه علاقة هذا المرض بالآلهة أو بالارواح النجسة ويقول إنه مثل سائر الامراض « ينشأ من أشياء تدخــل الجسم وتخرج منه مثل البرد والشمس والرياح وهي أشياء دائمة التغير ولا تهدأ »

وفي هذه السنة عينها أخذ « ديمقرايطس » يضع نظرية غايتها الاستغناء عن الآلهة في تفسير أصل الكون ونهايته. فرد المواد كلها الى ذرات. وقال إن العوالم تختلف فهي دائمة النمو والفساد . ونحن الآن في عصر النظرية الذرية التي احياها العلماء في القرن الماضي . ولم يذكر التاريخ أن أحد أضطهده لهذه الآراء

وحول هذا الوقت نجد ثلاثة أشخاص لا يزال لأسمائهم روعة وأثر في الثقافة الحاضرة . نعني بهم سقراط وافلاطون

وارسطوطاليس

اما سقراط فيمثل نوعاً من الانتكاس في النظر العلمي فهو الاديب الذي يكاد يعلن كراهته للعلم . ومن أقواله أنه من العبث « ان يعرف الانسان المعارف لذاتها » ،وكان يقول أيضاً بخلود النفس . وأن « ضمير الانسان الخفي هو معيار كل الاشياء أو يجب أن يكون كذلك . وأن الآلهة لا تقرر مصيرنا وانما هذا المصير في أيدينا ».ثم كان يختصر الآلهة كلها في الله واحد غير منظور . ولم يكن في كل ما قاله سقراط ما يمكن أن يأخذه عليه مؤمن . ولكن السياسة وجدت سبيلاً الى قتله عن طريق فلسفته . فأنه كان « معتدلاً » في وقت يتطلب الغلو . فقد كانت اثينا بين حزبين حزب العظاميين وحزب العصاميين . وكان سقراط يتوسط بينهما،لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . لأنه لم يكن يظن أن الخير كله في احدى هاتين الفئتين . فلما انتصر العصاميون سنة ٤٠٣ ق. م. رأى سقراط أنه لن يعامل بتسامح وحضه اصدقاؤه على الفرار من اثينا فرفض . ولم تكن الا ايام حتى عقد له مجلس مؤلف من ٥٠٠ قاض لمحاكمته على كفره . وقد دافع سقراط عن الحرية دفاعاً مجيداً ما زلنا نحن في حاجة لان نسمع مثله

قال سقراط : ليس على الارض انسان له الحق في أن يملي على الآخر ما يجب أن يؤمن به أو يحرمه من حق

التفكير كما يهوى . وأيضاً : « ما دام الانسان على وفاق مع ضميره فانه يستطيع أن يستغني عن رضى أصدقائه وأن يستغني عن المال وعن العائلة وعن البيت . ولكن بما أنه لا يمكن أي انسان أن يصل الى نتائج صحيحة بدون أن يفحص المسائل ، ما لها وما عليها ، فحصاً تاماً فأنه يجب أن يترك الناس أحراراً ، لهم الحرية التامة في مناقشة جميع المسائل بدون أن تتدخل الحكومة في مناقشتهم »

وكانت حجج سقراط في دفاعه عن نفسه ورد تهمة الكفر التي اتهم بها قوية الى حد أن خاطبه المجلس في الكف عن تعليم تلاميذه بحيث اذا وعد وعداً صادقاً بذلك فأن المجلس يعفو عنه . فكان جواب سقراط على هذه « التسوية » :

« كلا . ما دام ضميري ، هذا الصوت الهادىء الصغير في قلبي ، يأمرني بأن أسير وأعلم الناس طريق العقل الصحيح فأني سأوالي تعليم الناس وأصرح لهم بما في عقلي بدون اعتبار للنتائج »

ولم يكن بعد ذلك سوى الامر بقتله فقتل وتجرع السم بين تلاميذه ومات مرتاح الضمير هادىء النفس . وتفرق تلاميذه بعد مقتله مرعوبين . ولكن لم تمض عشر سنوات حتى عادوا الى روعهم وعادوا يعلمون الناس فلسفته

وقام بعد سقراط تلميذه وراويته افلاطون. وقد وضع افلاطون هذا أول طوبى معروفة في التاريخ مثّل فيها السعادة الانسانية في نظام عمراني يختلف عن النظام الذي كان يعيش فيه اختلاف الاشتراكية الروسية الآن عن نظامنا . ومع ذلك لم تضطهده حكومة الاثينيين . وكان افلاطون صوفياً بل هو أول الصوفيين ، يقول بأن شهادة الحس على الحقائق غير صحيحة لأنها دائمة التقلب . فمعرفة الحقائق يجب أن تصدر عن الفكر لا عن الحواس. وقد اعتمد رجال الدين في القرون الوسطى على مذهب افلاطون هذا في مقاومتهم للعلم وتنقص قيمة المذهب العلمي القائم على الحس والتجربة . وأنت عندما تقرأ كتاباً لأحد الصوفيين المسلمين والنصارى تجده يعتمد الاعتماد كله على هذا المذهب الذي يقول بأن ما ندركه عن سبيل حواسنا ليس كل شيء . وانما ندركها بذهننا فقط .

وجاء بعد افلاطون ارسطوطاليس معلم الاسكندر . ويمتاز ارسطوطاليس عن افلاطون وسقراط بأنه عالم لا يشوب ذهنه شيء من الصوفية الافلاطونية بل هو أول من فصل الادب من العلم عندما ألف كتاب « التاريخ الطبيعي » . وتتلخص آراء ارسطوطاليس من حيث النظر العلمي في ما يلي :

١ ــ أن المادة دائمة غير مخلوقة ولا تفنى

٢ ــ أصل المادة أربعة عناصر وهي الماء والهــواء والتراب والنار

٣ ــ الارض كرة وهي مركز الكون

٤ ــ النجوم والكواكب تدور حول الارض

٥ ــ الكون محدود

وكانت كل هذه الآراء تعارض العقائد الدينية عنــد الاغريق ومع ذلك لم يجد حرجاً في إذاعتها . بل كان هو يصرح بأن الآلهــة لا تستطيع ان تخالف النواميس الطبيعية . وقــد كانت آراء ارسطوطاليس مــادة الفلسفة والجدل نحو ألفي سنة عند العرب والافرنج . ولكن روح ارسطوطاليس ، وهي روح التجربة والاختبار الحسي ، لم تعم العالم الذهني في اليونان . فان مدرسة الاسكندرية كانت تنزع نزعة علمية ولكنها كانت نزعة نظرية غــير قائمة على الاختبار والتجربة ، وكان لافلاطون أثر كبير فيها . فاننا اذا عزونا نظريات اقليــدس وارشميدس الى روح ارسطوطاليس فاننا نجد روح افلاطون قوية كل القوة في « فيلو » الفيلسوف اليهودي الاسكندري الذي ولد سنة ٢٠ ق . م . فانه اعتمد على فلسفة افلاطون وجعــل الله مبدأ غير محسوس لا يمكن ان يتسم بصفات أو تنسب اليه عواطف على النحو الذي نراه مشروحاً في رسالة « حي ابن يقظان » لابن طفيل . ولكن فلسفة افــلاطون كان من أثرها أنهــا أكبرت من شأن الروح وصغرت

من شأن الظواهر الحسية . فكانت بذلك أداة تعاون الدين وتؤخر العلم . تعاون الاول بما تدعيه من الاستغناء عن الحواس في ادراك ماهية الروح أو الله ، وتؤخر الثاني بتصغيرها شأن الحواس والتجارب وهي لازمة لتقدم العلوم

فمنذ سنة ٤٠٠ ق . م . الى سنة ١٦٠٠ بعد الميلاد كان العلماء عند العرب وعند الافرنج ينزعون نزعة افلاطون ويقبلون جميع آراء ارسطوطاليس دون ان ينزعوا نزعته . وقد نزع العرب نزعة علمية في اواخر ايامهم . ولكن هذه النزعة لم يوحها اليهم فلاسفة اليونان وانما كانت ترمي الى البحث عن الذهب واحالة العناصر . فهداهم هذا الخيال الكاذب الى ان يعثروا في طريقهم على جملة أشياء ذات قيمة علمية . ولكنك اذا رجعت الى الكتب الدينية والصوفية عند الافرنج والعرب في القرون الوسطى تجدها كلها ترجع الى افلاطون . فهذا الجدل الذي نراه في حقيقة الله والنفس يرجع الى البذرة التي طرحها افلاطون عند ما فصل الذهن عن الحواس

ولكن افلاطون وارسطوطاليس وفيلو الاسكندري وارشميدس واقليدس كلهم ، وطائفة كبيرة أخرى ، عاشوا في ظل الحرية الفكرية الاغريقية . ولم يكن يتحرج أحد منهم في ابداء رأيه . ولسنا ننسى ان ارسطوطاليس

فرّ من اثينا عندما علم بموت الاسكندر ، ولكن فراره كان قائماً على الظروف السياسية . وربما خشي مع ذلك ان يتعلل عليه الاثينيون بعلل فلسفية . ولكن الروح السائدة في تاريخ الاغريق القدماء هي روح التسامح البالغ

المسيحية والحرية الفكرية

سبق ان قلنا ان الدين في ذاته لا يمكن ان يضطهد . وانما الذي يضطهد هو السلطة الممثلة في الدين أو المستعينة بالدين . فهناك طائفة من الناس تضطهد الناس باسم الدين . وقد تكون هذه الطائفة من رجال السياسة أو من رجال الدين . وانت عند ما تقرأ الانجيل تجد ان المسيح لم يكن يقصد الى وضع نظام كنسي جديد له كهنة وحكومة ، وان المسيحي الصادق في نظره هو الذي يدخل غرفته ويصلي لربه بعيداً عن اعين الناس . والحق ان لهجة المسيح كلها توهم القارىء انه كان يعتقد ان يوم القيامة قد أزف فليس هناك ما يدعو الى ايجاد نظام وحكومة وانما يجب على الناس ان يتهادنوا ويعيشوا معاً بسلام هذا الوقت القصير قبل ان ينشر الناس وينصب الميزان . ولكن المسيحية نشأت في حضن اليهودية ، وعاشت مدة غير قصيرة والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهوداً لهم مذهبهم الخاص . ولذلك

جرت المسيحية في نظامها على ما رأت من النظم اليهودية فصار لها كهنة . وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة مدة الف عام تقريباً . فالكنيسة اضطهدت العلماء . والمسيح الذي كان يطلب من المسيحي أن يدخل غرفته ويقفل على نفسه ويصلي لم يفكر قط في انشاء كنيسة واقامة كهنة عليها . وانما جاءت هذه الفكرة من بولس . فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الاول للميلاد هي مسيحية بولس وليست مسيحية المسيح . ونقول بعبارة اخرى ان الدين للمسيح والكنيسة لبولس . وان الدين اذا كان قد عاق العلم احياناً ببعض عقائده فأن السبب هو الكنيسة التي اضطهدت العلماء

وقبل ان نعرض للاضطهاد الديني يجب ان نعرف هنا العلل التي يرجع اليها نجاح المسيحية دون الاديان التي كانت تحوطها والتي كانت أقوى منها وكانت تستند الى قوى كبيرة عند ظهور المسيحية

فأول ما يجب ذكره انه عند ظهور المسيحية كانت الثقافة الرومانية والاغريقية قد ضعضعت الآلهة وأزالت من النفوس ما كان لها من حرمة واستعد الناس للايمان بأله واحد

ثانياً — لما استبحر العمران وانتشرت الحضارة الرومانية والاغريقية والمصرية تداخلت الاديان وصارت العقائد الخاصة بأحدها تدخل في الآخر . وعند ما كثرت المهاجرات

زاد هـذا التدخل . ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت في تلك الاديان . وما زلنا نحن المصريين نعرف في المسيحية فكرة الثالوث: الآب والابن والروح القدس . وانها هي الفكرة التي كانت فاشية عند المصريين باسم اوسوريس وايسيس وهورس . وقد يسّر هذا التداخل على الناس الايمان بالدين الجديد

ثالثاً — الديانة المسيحية هي ديانة البر والتسامح والغفران. وهـذه كلها فضائل يقدرها الفقير أكبر تقدير ، وان كان الغني القادر لا يبالي بها كثيراً لأن نفعها يعود على الفقير . وقد كان الفقر من نصيب تسعة أعشار سكان الامبراطورية الرومانية ولذلك انتشرت بينهم المسيحية

رابعاً — كان من الممكن ان يؤمن الناس باليهودية دون المسيحية لأن لكل منها الهاً واحداً . انما كانت تمتـاز المسيحية عن اليهودية من حيث انها كانت تقبل جميـع الناس بخلاف اليهوديـة التي كانت تقصر الدين الموسوي على اليهود كأنهم شعب الله المختار . وقد بدأت المسيحيـة تفشو كأنها مذهب خاص من مذاهب اليهودية ، ولم يكـن بين المؤمنين بها اولاً سوى اليهود . ولكن بولس اخرجها من هذه الحظيرة الضيقة وجعلها ديناً عامـاً لجميـع الناس ولقي في عمله هذا عنتاً كبيراً من اليهود

خامساً — بقيت الكنيسة المسيحية ضعيفة حتى انتقلت عاصمة الامبراطور من رومية الى القسطنطينية ، فانفرد عندئذ

بابا رومية بسلطان كبير لم يكن له مدة وجود الامبراطرة في رومية

* * *

كان الروماني مفطوراً بطبعه وتربيته وجغرافية امبراطوريته على التسامح. فلم يكن يعارض المصريين أو الأغريق أو الالمان في ممارسة أديانهم ما دامت هذه الاديان لا تنكر سلطان رومية

ولكن المسيحية كانت تنكر هذه السلطة. فكان الشاب الروماني يرفض الانخراط في سلك الجندية لأن المسيحية تنهاه عن مقاومة الشر بالشر. ولم يكن سلطان رومية قائماً إلا على قوتها الحربية التي اذا تزعزعت لم يبق لهذا السلطان من أثر. فيمكننا الآن ان نتصور مقدار الحنق الذي كان يشعر به والٍ في افريقيا او اسبانيا او سوريا عندما كان يرى امامه شاباً رومانياً، قوي العضل متين البنية، يقف امامه ويرفض اخماد فتنة تهدد الدولة بالخطر العظيم لأنه ينتمي الى جمعية صغيرة تدعى جمعية المسيحيين انفق اعضاؤها على أن لا يمتشقوا حساماً ولا يدخلوا في حرب. وكان مثل هذا الوالي يبحث بالطبع عن الكتاب الذي يحتوي على عقائد هؤلاء المسيحيين فيقرأ الانجيل فيجده ينطوي على الثورة على الاغنياء والاقوياء والمتسلطين. وكان يقرأ في «الرؤيا» وصفاً للمدينة الفاجرة القائمة على التلال أو الجبال فلا يفسر لنفسه كل ذلك إلا بأن المدينة هي

رومية وبأن الكفار المتسلطين هم الرومانيون . ثم كان العامة يرون هذا الدين الجديد يندس بينهم وخاصة بين العبيد الفقراء الذين كانوا يرون منهم من احتقارهم لاصنامهم ما كان يثير غيظهم . فكان من ذلك كله أن قام في ذهن رجال الدولة أن يُقمع هذا الدين الجديد لأنه ينافي مصالح الدولة . وبدأ الاضطهاد من ذلك الوقت . ولم يكن الاضطهاد من الدولة وحدها بل كان من الامة ايضاً . فأنه عندما احترقت رومية في عهد الوغد نيرون حمل العامة على المسيحيين فأثخنوهم قتلا وأعملوا التدمير في بيوتهم بحجة أنهم هم الذين أشعلوا النار لتخريب رومية

ولا يمكن ان يعرف عدد الذين قتلوا باضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين، فالاغلب انهم لا يزيدون عن بضعة آلاف في جميع انحاء الدولة من انجلترا الى العراق ومن المانيا الى مصر . والسنة القبطية يبتدىء تاريخها باضطهاد دقلديانوس للمسيحيين ، مما يدل على الاثر الكبير الذي تركه هذا الاضطهاد في نفوس الاقباط . ولكن ليس هناك ما يدل على ان الاقباط الذين قتلوا في هذه الاضطهادات يزيدون على بصع مئات . فان القاضي الروماني لم يكن يدرك شيئاً من المسيحية سوى ما كان يتعارض فيها والسلطة الرومانية ، فكان يقنع بأوهى اعتراف بهذه السلطة لتبرئة المسيحي في العهد الاول لظهور المسيحية . ثم لما زاد عدد المسيحيين زاد الاضطهاد فصارت الدولة تقتفي آثارهم

وتكبسهم في معابدهم وتقدمهم طعاماً للوحوش في الملاهي الكبرى . وقــد اشتهر باضطهاد المسيحيين امبراطور يدعى دقلديانوس مات سنة ٣١٣ وأخفق في ادارة الدولة اخفاقاً تاماً حتّى خلع نفسه عن العرش وذهب يزرع الكرنب في دلماطيا . ولم تكن مسألة المسيحيين الا احدى المسائل العديدة التي عالجها ولم يستطع حلها . ولنضرب مثلا على عجزه بمسألة اخرى . فأن كثرة الضرائب على اصحاب الارض جعلتهم يهجرون ارضهم ويقبلون على المدن للاقامة فيها وتعلم صناعتها . فبدلاً من أن يخفف عنهم الضرائب التي يفرون منها شرع للدولة شرعــة جديدة تقتضي ألا يعمل أحد عملاً لم يعمله أبوه وان يقتصر كل انسان على الصناعة التي كان يعملها هذا الاب بصرف النظر عن كفايته في أية صنعة اخرى . فكان التاجر يؤخذ ويرد الى الارض لأن أباه كان فلاحــاً . وكان البنّاء يؤخذ من صناعته ويرد الى الحدادة لأن أبــاه كان حداداً ، وهلم جراً وقد احدثت هذه الشرعة ارتباكاً عظيماً في الدولة يشبه ما كانت تحدثه مراسيم الحاكم بأمر الله في مصر

ورأى دقلديانوس في السنة التي مات فيها بعد ان ترك عرش الدولة بنحو ٧ سنوات أن المسيحية صــارت ديناً معترفاً به من امبراطور الدولــة قسطنطين ، فكان يزرع الكرنب ويفكر في هــذا العالم العجيب كيف يصبح دين

بعد كل هذه الاضطهادات التي أوقعها هو بالمؤمنين به ، دينَ دولة يقضي على كل الاديان التي سبقته . والحق أن دقلديانوس كان قبل ان يتزل عن العرش قـد رأى ان خطة القمع لا تجدي نفعا وان الاستشهاد تربـة خصبة يتضاعف حصيدها سنة بعد اخرى ، ولذلك نشر في جميع انحاء الامبراطورية منشوراً اذن فيه للمسيحيين بممارسة دينهم وقال فيه « لقد كنا نود بصفة خاصة ان نرد الى سنّـة العقل والطبيعة اولئك المسيحيين المخدوعين الذين جحدوا الديانة والشعائر التي اتخذها السلف ثم افتاتوا على القدماء وازدروا بهم واخترعوا قوانين وآراء أسرفوا فيها بمقدار ما سمحت لهم مخيلتهم ، ثم انشأوا جمعية مؤلفـة من الاقاليم المختلفة في امبراطوريتنا . وبما ان المراسيم الـتي أذعناها بغية تحتيم عبادة الآلهة قـد عرّضت كثيرين من المسيحيين للخطر والكوارث ، وبما ان كثيرين منهم قد قتلوا وكثيرين ايضاً ممن لا يزالون مصرين عـلى جنونهم الفكري قد حرموا من ممارسة علنية فقد رأينا ان نبسط لهؤلاء التعساء ثمرة تسامحنا ، ولذلك نرخص لهم بممارسة آرائهم والاجتماع معاً في معابدهم بدون خوف أو مضايقة وذلك بشرط محافظتهم على قوانين البـلاد وحكومتها واحترامهم لها .

ومنذ ذلك الوقت أخذ الفقراء يدخلون في الدين أفواجاً في جميع انحاء الامبراطورية وصارت المعابد والاصنـام

تهدم ، ولم يحافظ على الوثنية سوى الاشراف والسادة في المدن الكبرى . وحوالى سنة ٤٠٠ أمر الامبراطور جراتيان بهدم تمثال النصر من « السنات » أي مجلس الشيوخ في رومية لأن الاعضاء المسيحيين كانوا يتأذون برؤية هذا التمثال . واحتج الاعضاء الوثنيون ولكن احتجاجهم لم يؤد إلا الى نفي بعضهم من رومية

وانعكس مجرى التيار فصار الاباطرة يضطهدون الوثنيين بعد ان كان أسلافهم يضطهدون المسيحيين ، ولكن هذا الاضطهاد لم يدم طويلاً ولم يبلغ من الحدة ما بلغته الاضطهادات السابقة لسببين : أولاً ان الوثنيين كانوا من السادة أرباب الحكم . والثاني أن هؤلاء الوثنيين عندما رأوا ان أبواب الشرف والسيادة قد انفتحت في الكنيسة لم يتوانوا عن ولوجها والتمتع بامتيازاتها

وفي هذا الوقت نجد أشراف الرومانيين يدافعون عن حرية الرأي بحماسة لم يعرفوها مدة اضطهادهم للمسيحيين ، فكان منهم سيماخوس الذي مات سنة ٤٠٥ يقول في الدفاع عن حرية الرأي :

« لماذا لا نعيش نحن الوثنيين مع جيراننا المسيحيين في سلام ووفاق ؟ فكلانا ينظر الى نجوم واحدة ، وكلانا على سفر في هذا الكوكب ؛ وكلانا يعيش تحت سماء واحدة . فهل من المهم ان نعرف الطريق التي يختارها كل فرد لبلوغ الحقيقة ؟ »

ومنهم تيمستينوس فأنــه رأى ان الامبراطور فالنس (مات سنة ٣٧٨) قد انضم لطائفة مسيحية على طائفة اخرى . وكان هو نفسه وثنياً يؤمن بديانة آبائه ، فقدم اليه هذه النصيحة الغالية :

« ان هناك ميداناً لا يمكن الحاكم اياً كان أن يمارس فيه سلطانه وهذا هو ميدان الفضائل وخاصة عقائد الشخص الدينية ، فأن الإجبار هنا لا يثمر سوى النفاق والتمذهب بمذهب ما لا يقوم إلا عــلى الغش ، فخير للحاكم ان يتسامح مع جميـع العقائد لأنــه بالتسامح يمكن تجنب النزعات المدنية . والتسامح زيادة على ذلك ناموس مقدس، فأن الله نفسه قد ابدى رغبته واضحة في أن تكون لنــا عدة اديان ، والله وحــده قادر على ان يميز بين الطرق التي يتبعها الناس لكي يدركوا الحقائق الخفيـة والربانية ، وانه ليسر الله أن يرى تعدد الطرق التي يعبر عن الولاء له بها ، فهو يحب أن يرى المسيحي يمارس شعـائره بينما اليوناني أو المصري يمارس كل منهما شعائر اخرى »

ولكن كل هذا الكلام ذهب هبــاء وابتدأ المسيحيون يضطهدون غير المسيحين بهمة لا تعرف الكلال ومضوا على ذلك نحو الف سنة

فكانت الكنيســة الارثوذكسية في الشرق ، منقسمة طائفتين تقتتلان في الاسكندرية وفي كل بلـدة كبيرة

وكان الكاثوليك في الغرب يقاتلون الارثوذكس في الشرق كما يقاتلون المسلمين

ثم ظهر بعد ذلك البروتستانت فدارت المعـــارك بينهم وبين الكاثوليك مدة طويلة ايضاً

آخر التسامح : يوليان وهيباطية

القرن الرابع هو القرن الذي يفصل بين عصرين قديمين كلاهما مخالف للآخر بل كلاهما نقيض للآخر . فقبل هذا القرن نجد نحو ٨٠٠ سنة من التفكير الحر الجريء في الأدب والسياسة والعلوم والفلسفة تعيش كلها في ظل الوثنية تسيطر عليها جوقة من الآلهة ، تتسامح أحياناً في الآراء الجديدة وأحياناً تعجز عن مقاومتها . ففي سنة ٤٠٠ ق.م. مثلاً نجد محاولات عديدة في اليونان غايتها اثبات وجود نواميس طبيعية للعالم لا تستطيع الآلهة أن تخالفها . وفي سنة ٢٠٠ بعد الميلاد نجد أن جالينوس الطبيب الخاص لمرقس اورليوس الامبراطور الروماني يقول أيضاً بالنواميس الطبيعية ويصرح بأنكار المعجزات من الانبياء أو من الآلهة. ولكن بعد القرن الرابع نجد امامنا نحو ألف عام سادت فيها الكنيسة المسيحية وزالت النزعة العلمية وانقطع البحث في العلوم والسياسة والآداب واقتصر الدرس على التوراة

والانجيل وعلى قليل جداً من الكتب الاغريقية وعلى شيء كثير من الكتب اللاتينية

ولسنا نعني بذلك أن الكنيسة كانت السبب الوحيد في اخماد حركة الذهن الانساني في القرون الوسطى . فأن غارات القوط والوندال والمجر والبلغار والهون كانت سبباً آخر لهدم كيان الامبراطورية ونشر الفوضى فيها . والعلوم والآداب من ثمار الحضارة والسلام . وهذه الغارات وتوحش القائمين بها قطعت الصلة بين علوم الاغريق وبين الاوروبيين في القرون الوسطى ، فلم تكن الكنيسة تمنع الناس من التفكير الحر بمقدار ما كان يمنعهم جهلهم هم أنفسهم

فماذا كان يدرس اذن أهل القرون الوسطى ؟ كانوا يدرسون الشروح والتعليقات على الكتب اللاتينية وعلى الانجيل والتوراة وعلى كتابين أو ثلاثة من كتب الاغريق القدماء . والشرح يليه شرح ثم شرح الشرح يليه شرح آخر على النحو الذي يرى الآن في بعض الكتب العربية القديمة

والآن يجب ان نشيّع الحرية الفكرية في العصر القديم بعرض بعض حوادث القرن الرابع . ويحسن بنا لكي ننقل للقارىء نفس هذا القرن أن نترجم لحياة اثنين من عظمائه هما يوليان الامبراطور الكافر وهيباطية الفتاة الفيلسوفة بمدرسة الاسكندرية

كان يوليان ابن اخت قسطنطين الامبراطور الروماني

الذي جعل القسطنطينية عاصمة الدولة والذي جعل المسيحية ديناً للدولة . وولد يوليان هذا سنة ٣٣١ وحمله اهله الى آسيا الصغرى حيث درس الفلسفة اليونانية في نيقوميدية . ولكنه لم يرتو من هذا المنهل فرحل الى اثينا وأخذ في درس القدماء، وأشربت روحه الوطنية الاغريقية القديمة وتشبعت نفسه بفلسفة الاثينيين ، فصار ينظر الى المسيحية كأنها فلسفة آسيوية قد أغارت على الغرب . ولكنه لم يكن يستطيع أن يصرح بأنه يؤثر آلهة اليونان على آلهة المسيحية فكظم ما في نفسه الى أن ساعدته المقادير بأن صار امبراطوراً . فشرع عندئذ يعمر اثينا ويدعو الطلبة الى دور العلم فيها كما كانوا يحضرون أيام افلاطون وارسطوطاليس، وكان يحتم عليهم أن يلبسوا اللباس الذي كان يلبسه آباؤهم في عصر الفلاسفة وأن يتكلموا اللغة التي كان يتكلمها الاثينيون قبل ٧٠٠ سنة . وقد نرى من ذلك أن حماسته قد جاوزت عقله . فان هذا الحرص على محاكاة القدماء ليس تجديداً بل هو تقليد . حتى أصبحت دور العلم التي افتتحها أشبه شيء بدور التمثيل

وليس يستطيع أحد أن يحدس ما كان يمكن يوليان أن يفعل لو أن حكمه دام أكثر من سنتين . فأنه حاول أن يمحو ثقافة آسيا ويقيم مكانها صرح الفلسفة اليونانية. ولكن الفلسفة اليونانية كانت قد نسيت وكانت المسيحية قد رسخت في قلوب العامة . وكان الرهبان يؤلفون عنه الاكاذيب

حتى حصبه غوغاء انطاكية مرة بالحجارة والتراب . ومع كل هذا الاستفزاز لم يجنح مرة الى اضطهادهم وكان يقول يجب الا يستشهد احد . وفي سنة ٣٦٣ وهو يقاتل الفرس اخترق جسمه سهم حمل منه جرحاً ثم مات بعد ايام . وفي رواية أنه عند ما اصيب بالسهم قال : « لقد انتصرت أيها الجليلي ! ». والجليلي هو المسيح

وأخذت الوثنية بعد موت حامي حماها يوليان تنهزم وتنخسف أمام المسيحية . ففي سنة ٣٧٨ صدر قانون ينهى الناس عن تقديم القربان للآلهة فانقطعت بذلك أرزاق الكهنة حتى اضطروا الى هجرة المعابد . وكانت هذه المعـــابد تحوي على طرف الصناعات القديمة وكان يتمثل في بنائها فن القدماء . فلما هجرت شرع الناس في نهبها وتدميرها ونقل الاحجار منها . حتى السيرابيوم ، المعبد الكبير الذي كان بالاسكندرية والذي تناوبت على بنائه جهود المصريين والاغريق والرومان ، دمر وبعثر ما فيه . وجرى التدمير في أرض الفلاسفة بلاد اليونانيين ، فكانت التماثيل الناصعة من المرمر تحطم لأنها من آثار الكفـــار النجسة . وفي سنة ٣٩٤ ألغيت الالعاب الاولمبية لأن الدين الجديد لا يعنى بالجسد عنايته بالروح . وجاء الامبراطور يوستنيان فألغى كلية اثينا واستصفى الاملاك الموقوفة عليها . وكان بها سبعة من الاساتذة فروا الى كسرى ملك الفرس فرحب بهم وأذن لهم في قضاء ما تبقى من حيـــاتهم في لعب

وكان بالاسكندرية جامعة أنشأها البطالسة وعاشت عدة قرون وظهر فيهـــا اقليدس صاحب النظريات الهندسية وارشيمدس مخترع الطنبور الذي يستعمل الآن في الري في مصر وطائفة أخرى من العلماء. فلما كانت سنة ٤١٤ كان بها استاذة تدعى هيباطية في الخامسة والاربعين قد اختصت بدرس الحكمة وتدريسها . وكانت قد نشأت في بيت علم وفضل . أبوها ثيون أحد علماء الاسكندرية رباها صغيرة ثم أرسلها الى اثينا لكي تستكمل ما ينقصها فلما عادت الى الاسكندرية أخذت تدرس فلسفة ارسطوطاليس وافلاطون . وكان الطلبة الذين يحضرونها يعشقونهـــا لحسن بيانها وللنزاهة التي تتسم بها في عصر كان كله أغراض وسفالات وتعصب . وكان بطرك الاسكندرية في ذلك الوقت رجلاً يدعى كيرلس اشتهر بشيئين يدلان على روح الزمن : أولهـما أنه طرد جميع اليهود من الاسكندرية مع أنهم كانوا دعائم عمارتها . والثاني انه ألف كتاباً يسب فيه يوليان الامبراطور المرتد . وثالثة الاثافيه هي تدبيره قتل هيباطية ومحو العلم من الاسكندرية. فقد خاف كيرلس تأثير الحكمة اليونانية في النفوس ورأى أن بقاء الجامعة يكون بمثابة استحياء البذرة التي تنبت يوماً دوحة كبيرة قد تقضي على ما حولها من الاعشاب . فقر رأيه على الغاء الجامعة . وفي أحد الايام وهيباطية قاعدة

تحادث الطلبة اذا بعشرات من الرهبان يتوافــدون عليها ويقلبون كل ما يلاقونه رأساً على عقب. ثم قبضوا عليها وجروها الى أحد شوارع الاسكندرية ثم مزقوهـــا أشلاء التهمتها الكلاب الجائعة . وهكذا كان مصير الحكمة الى الكلاب على يد كيرلس بطرك الاسكندرية في سنة ٤١٥م.
وحق لفم الذهب ، بطرك القسطنطينية ، أن يفخـــر في القرن الرابع بأن جميع الكتب الوثنية قد زالت من الوجود

النزاع بين البابوية والقومية

النظر نظران : ذاتي وموضوعي . فنحن ننظر للاشياء نظراً ذاتياً كما نشتهيها أن تكون في خيالنا وفق رغائبنا . ونحن نتجرد أحياناً من خيالنا وننظر للاشياء نظراً موضوعياً فنراها كما هي في الواقع تتجرد بذلك من خيالنا ومن شهواتنا

فاذا نظرنا للدين الاسلامي مثلا نظراً ذاتياً فأننا عندئذ نجرده من أشياء عديدة ، من الخلافة ومن التحرج من الصلاة بالحذاء ومن استنجاس الكلاب . وذلك لاننـا لا نجد نصاً بالخلافة في القرآن ، ولأننا نعلم أن السلف الاول من المسلمين كانوا يدخلون الجـامع ويصلون بأحذيتهم والكلاب تجتاز بالجامع . وها انذا انقل من كتاب « ذم الموسوسين» لابن قدامة المقدسي ما يدل على صحة ذلك . قال : « وروى انس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في النعلين . » وقال النبي : « اذا جاء أحدكم المسجد فلينظر . فأن رأى على نعليه قذراً فليمسحه وليصل فيها .»

وقال ابن عمر : « كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول في المسجد . ولم يكونوا يرون شيئاً في ذلك »

فاذا نظرت الى الا لام نظراً ذاتياً قلت إنه لا يقول بالخلافة، وأنه يجوز الصلاة فيه بالحذاء، وأن الكلب ليس حيواناً نجساً . ولكن هذا النظر يخالف الواقع لان الخلافة عاشت ١٣٠٠ سنة تقريباً ولا استنجاس الكلاب واستقذار النعل من التقاليد القديمة في الاسلام . فانا لهذا السبب أعد الخلافة جزءاً من الاسلام . لأن مركزي هو مركز المؤرخ الذي يقرر الواقع وينظر نظراً موضوعياً

وكذلك الحال في المسيحية . اذا نظرت اليها نظراً ذاتياً أنكرت البابوية بل انكرت الكنيسة والكهنة . لان المسيح دعا المؤمن به أن يدخل الى غرفته ويقفل على نفسه ويصلي. ولكن المـؤرخ يجب ان يقول ان في المسيحية كنيسة وكهنة وبابا

والحقيقة ان النظام الاجتماعي أو الديني لا يقوم بنية صاحبه ومؤسسه بل بأثره في الهيئة الاجتماعية . والبابوية والخلافة كلتاهما من أثر المسيحية والاسلام وان لم يكونا من أبنية المسيح أو محمد . واذا كان لوثر قـد أنكر البابوية وعلي عبد الرزاق قد أنكر الخلافة فكلاهما يفعل ذلك بصفته رجل دين لا بصفته رجل تاريخ

وللبابوية أثر كبير في أوروبا لا يمكن المؤرخ لحرية الفكر ان يتجاهله . فقد كان اسقف رومية في القرون

الثلاثة الاولى من المسيحية لا يمتاز من سائر اساقفة المدن الكبرى في الامبراطورية بشيء. فلما انتقلت عاصمة الامبراطورية من رومية الى القسطنطينية في القرن الرابع اصبح اسقف رومية اكبر رئيس في العاصمة القديمة ولا يزال البابا يوقع تواقيعه الآن باسم «اسقف رومية»

وأخذ بابوات رومية في زيادة سلطتهـــم بتنصير الامم النائية عن رومية في الشمال والغرب . وكانت الكنيسة في زمانهم لا تدعو الى النصرانية فقط بل كانت ايضاً سبيـل نقل الحضارة الرومانية الى الجرمان ومـــا والاهم من امم الغرب والشمال . فانتفعت هذه الامم بالكنيسة ديانة ومدنية

وبين سنة ١٠٩٩ وسنة ١٧٢٠ كافحت رومية الاسلام فألّبت عليه الجيوش وسيرتها الى فلسطين وسوريا لانتزاع الارض المقدسة من المسلمين . كما انهـــا طاردت المسلمين من الاندلس حتى اضطروا الى التنصر او الى التروح عن البـــلاد

ولكن الكفاح الاكبر هو ذلك النزاع الذي نشب بين البابوية والقومية . فان البابا هو امير المؤمنين بين النصارى. وهو لذلك ينظر اليهم كأنهم امة واحدة لغتهم الرسمية هي اللغة اللاتينية كما ان ديانتهم هي النصرانية . وهو يعترف بوجود امراء لهم ولكن كلمته هي العليا يجب على هؤلاء الامراء أن يصدعوا لها

وقد كان للبابا سلاح قوي لا يتحرج من استعمالـه اذا

اراد اخضاع امير خارج عليه، وهذا السلاح هو الحرم . يحرمه من المسيحية وقد يحرم رعيته . فتكف الكنائس عن دق النواقيس وتقفل ابوابها فلا يستطيع احد ان يتزوج . وأيضاً يحمل الموتى الى قبورهم بلا صلاة . وفي الوقت نفسه يغري البابا أحد الامراء المجاورين لكي يغير على امارة هذا الامير الخارج ويبارك عليه في غارته . وللقارىء ان يتصور احوال الرعية في هذا الوقت . فان كل مسيحي كان يرى نفسه مرتبطاً بولائين : ولائه لاميره وولائه للبابا . فاذا اختلف هذان الاثنان احتاج الى ان يقرر ترك أحدهما ، وفي الترك خسارة عليه على كل حال، فهو يختار اهون الخسارتين . فكان ينزل عن الولاء لاميره ويخرج عليه ارضاء للبابا

ولننظر في حادثتين فقط من حوادث النزاع . فقد حدث في القرن الحادي عشر أن هنري الرابع امبراطور المانيا الذي مات سنة ١١٠٦ اختلف مع البابا غريغوريوس السابع على مسألة اوقاف الكهنة . فلم يكن بأسرع من أن حرمه البابا وألب عليه امراء المانيا . ورأى الامبراطور أنه بين رعيته كالأجرب لا يقرب منه احد بعد هذا الحرم فخرج ساعياً الى البابا ، وكان البابا في طريقه الى المانيا قد نزل في قصر في كانوسه . فوقف الامبراطور على الباب ثلاثة ايام وهو في لباس الرهبان حافي القدمين عاري الرأس يحمل عكازه ويقر بتوبته . وبعد هذا اذن له البابا فقبل

الارض بين يديه وخرج امبراطوراً مسيحياً كما كان قبل الحرم . ولكن نار الانتقام صارت تأكل قلبه . فعـــاد الى رومية بجيش جرار سنة ١٠٨١ وطرد البابا واقام غيره

وهناك حادثة اخرى من حوادث هذا النزاع : اختلف الملك يوحنا ملك انجلترا الذي مات سنة ١٢١٦ مع البابا، فحرمه البابا وعطلت الكنائس من الصلاة ومنعت عقـــود الزواج وحملت الجثث الى القبور بلا صلاة . ورأى يوحنـا ان ملك فرنسا يتهيأ لغزو بلاده بأمر البابا ، فأخذ يبحث عن امير المؤمنين بين المسلمين لكي يخاطبه في أن يدخل هو وجميع الأمة الانجليزية في دين الاسلام . ولكن البعثة التي ارسلها اخفقت . فعاد يوحنا صاغراً يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا . وصفح عنه بعد أن رأى منه من الـذل وصدق التوبة ما جعله يرفع الحرم عنه وعن الامة

فهذان مثالان يدلان القارىء على سلطـــة البابوية في القرون الوسطى ، ومنها يعرف كيف أن « محكمة التفتيش » التي انشأها البابا لمحاكمة الهراطقة لم تحكم قط على أحد من هؤلاء الهراطقة بالقتل . وانما كان يكفي أن تحرمه هي فتسرع الحكومة المدنية الى احراقه أو اعدامه بأية طريقـة اخرى . واذا هي توانت عن ذلك رأت السلطة البابويـة تتحفز لمناوأتها

وأخيراً في سنة ١٥١٧ انتصر مبدأ القوميـــات باعلان لوثر للبروتستانتية

المانويـة

نحن هنا في تاريخ حرية الفكر نقصر نظرنا على اوربا والاسلام لاتصال حياتنا الحاضرة بالثقافة الاوربية التي هي مادتنا الذهنية،وأيضاً لما ورثناه من التقاليد الاسلامية العربية التي تؤثر فينا الى الآن . ولذلك لا نبحث عن هذه الحرية في الهند أو الصين او اليابان لانقطاع الصلة بيننا وبين هذه الاقطار . ولسنا نخرج في هذا الفصل عن هذه القاعدة عندما ننظر في المانوية التي نشأت في فارس . فـــان فارس وان كانت بعيدة عنا الا أنها أخرجت ديناً عجيباً تخطاها الى المانيا وفرنسا ومصر وعاش دهراً ثم انقرض فجأة بعد أن أثر اثره في المسيحية بل في الاسلام أيضاً . ثم نحن نذكر الاديان لعلاقتها بالاضطهاد وتقييد الحرية الفكريـة فقـط . وقد ظهرت « محكمة التفتيش » أول ما ظهرت في اوربا بسبب العقائد المانوية التي تسربت الى المسيحية كما تسربت بعد ذلك الى الفرق الاسلامية

واذا قلنا ان «محكمة التفتيش» نشأت بسبب العقائـــد المانوية فأننا لا نعني بذلك أن الاضطهـاد الديـني لم يعرف قبل هذه المحكمة ، فأنه ما كادت المسيحية تنتصر عـــلى الوثنية حتى شب الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها . وعقد اول «مجمع مسكوني» في نيقية سنة ٣٢٥ لتقرير العقائد . وحدث النزاع المشهور بـــين آريوس واثناسيوس على طبيعة المسيح وهل هو مثل الله او دونه ، أو هل هما واحد ، او نحو هذا من الخلافات التي لا نأبه نحن لها الآن ولا نفهمها . ولكن محكمة التفتيش هي اول اداة منظمـــة للعقاب ظهرت في المسيحية . ويرجع تأسيسها الى العقائـــد المانوية ورغبة رجال الكنيسة الكاثوليكية في تجريد الدين منها

كان «ماني» مؤسس المانوية رجـــلاً فارسياً ولد بالمدائن سنة ٢١٥ وجعل دينه مزيجاً من الاديان الشائعـــة في زمنه ولقي حظاً قليلاً في نشره . ثم انتصر عليه رجال الدين في فارس فصلبوه وسلخوه وحشوه تبناً وعلقوه مدة ما لكي يعتبر المؤمنون به . ولكن تجارب الامم تدل كلها على ان الافكار لا تقتل بالسيف أو بالنار . فما هـــو ان مات ماني حتى كان الناس يستشهدون من اجـــل افكاره في فرنسا واسبانيا ، وحتى كان الاقباط في مصر يمارسون طائفة كبيرة من عقائده لا تزال حيـــة الى الآن . ويبدو لمن تأمل المانوية أن ماني كان يقصد الى ايجاد وفاق عام بين الناس بالتوفيق بين اديانهم جميعاً . فقد درس البوذيـــة

واخذ منها فكرة التسلط على الشهوات وقمعها بسحق الجسم وجرم لذلك جملة مآكل وقصر طعامـه على الخضروات والسمك كما هو صوم الاقبـاط الان . وجرى في منطقه البوذي ، الذي استقاه من معينه بعد أن ساح في الهنـد والصين ، الى نهايته بأن جحد الحب والتناسل فقال بأيثار العزوبة على الزواج ، وترجع العزوبة التي يتسم بها كهنة الكاثوليك الآن الى هذه النزعة المانوية . ثم أخـذ من زرادشت نبي الفرس تقسيم القوة الكونية الى مبدأين ، مبدأ الخير ومبدأ الشر ، وكان زرادشت يعبر عن الاولى بالضوء وعن الثانية بالظلام ، فنقح هو هذا التعبير بان جعل آله المسيحية مبدأ للخير وآله اليهود « يهوه » مبدأ للشر . وتقوّضت كنيسته بموته سنة ٢٧٧ ولكن عقائده كما قلنا لم تمت فتقمصها الكهنة المسيحيون في غرب اوروبا وجنحوا الى العزوبة وحرموا على الناس قراءة التوراة لأنه كتاب « يهوه » . وكان المانويون يدعون « الطاهرين » لشدة تقشفهم ولاعلائهم شأن الروح وانكارهم اللذات الجسدية

وأول ضحايا المانوية اسقف اسبـاني يدعى بريشيليان أحرق سنة ٣٨٥ لهرطقته المانوية ، وبعد هـذا التاريخ لا نسمع شيئاً عن المانوية الى القرن الحادي عشر حين نسمع عن طوائف تتسمى باسماء مختلفة ولكنها مشربة بهـذا المذهب ، فمنهم طائفة الالبيين الـتي عاشت في جنوب فرنـسا الشرقي لا نعرف متى ابتدأ تكوينها وانما يذكر

التاريخ أن اول من قتل لتمسكه بمذهبها كان سنة ١٠٢٢ وان آخر من قتل كان سنة ١٣٤٥ . وان محكمة التفتيش انشئت في هذا العهد

ولما لم تكف المحكمة ، اذ كان كل شهيد يُقتل أو يحرق يتقدم لملء فراغه عشرة او عشرون ، نظمت الجيوش وسلطت على الطائفة كلها لمحقها ، وكان الألبي يؤمن بأن الجسم والمادة كليهما شر وان المسيح انما عاش على الارض روحاً لا جسم له ، وان الزواج منكر يحسن بالانسان ان يتجنبه وان الانسان لا يمكنه أن يتحرر تماماً إلا بالتقشف وانكار الذات . وكانت الطائفة منقسمة فئتين : فئة القادة « الطاهرين » وهؤلاء كانوا يعيشون في نسك وتقشف بالغين ، وفئة « الاتباع » الذين لم يكن يُطلب منهم مثل هذا النسك أو التقشف . ولعل كل ذلك كان يمكن كنيسة البابا ان تتسامح فيه وتتصام عنه ولكن الالبيين كانوا – وهذا موضع الخطر – يرفضون ان يرضخوا للكنيسة بقرش واحد من مالهم

واخيراً ألهب الالبيون شرارة الحرب بأن قتلوا مندوب البابا في بروفانس الاقليم الذي يسكنونه ، فتعلل البابا انوسنت الثالث بقتل مندوبه ودعا لجهادهم ورغب الناس في هذا الجهاد بأن كل من يقاتل هؤلاء الكفار اربعين يوماً متوالية يُرفع عنه ربا الديون التي يستدينها وتغفر له خطاياه السابقة واللاحقة وايضاً يعفى مدة القتال

من سريان أحكام القضاء عليه ، ومعنى هـذا الامتياز الاخير انه يستطيع أن نعمل بمن يقاتلهم كما يشاء

واجتمع الاوباش من جميع انحاء اوروبا تلبية لهذا النداء وحقوا الالبين محقاً . وكان يقود هؤلاء الاوباش رجل انكليزي يدعى سيمون دومونتفورث كوفىء على الفظائع التي ارتكبها بأقطاعه عدة ضياع واسعة في أرض هؤلاء المساكين الـذين قتلهم واباده‍م . وبقي أفراد من الالبين توزعوا في البلاد وقد ذلـوا واستكانوا ، ولكن محكمة التفتيش كانت تستثيرهم من أجحارهم وتعمل فيهم الموت قتلاً بالسيف وإحراقاً بالنار وخنقاً بالحبال الى ان زال اسمهم تماماً

وكانت محاكم التفتيش تنشأ في كل مكان ، وتحاكم الناس على كل شيء ، واشهر هذه المحاكم « المحكمة الملوكية » في اسبانيا و « المحكمة المقدسة » في روميـة ، والأولى مشهورة بقتل الاندلسيين المسلمين واليهود

وعاشت محاكم التفتيش اكثر من خمسمائة سنة قتلت فيها الالوف من الناس ، ولا نعني بالناس دهماءهم الذين يرضون بما يملى عليهم ، بل نعني خيارهم وعلماءهم ومفكريهم ، أولئك الذين كانت لهم كرامة فكرية لا يبيعونها بنفوسهم وكان لهم عرض ديني ينافحون عنه وكان لهم ضمـير يأبون الزنا عليه ، هؤلاء النـاس قتلتهم محاكم التفتيش فحرمت اوروبا من هذا العرق الثائر الحر الكريم واستأصلت

من اسبانيا جرثومة التفكير الحر حتى باتت هذه الامة وهي تعيش الان باجسامها في القرن العشرين وأرواحها لا تزال تتحسس الحياة في القرون المظلمة

وكان الانســان في تلك العصور يكبس منزله وهو هادىء وادع فيحمل في جوف الليـل ويعتقل الاشهر بل السنين وهو لا يدري ماهية التهمة التي سيتهم بها لأن خصماً له من الجيران قد ابلغ المحكمة بأنه سمعــه يقول كيت وكيت عن « الرؤيـا » أو عن « الثالوث » أو عن « المعجزات » . وكان يحرم على المتهم ان يوكل عنــه محامياً أو ان يعرف اسم الذي ابلغ عنه . وكانت المحكمة تعتبر شهادة الهرطيق اذا كانت على المتهم فاذا كانت لـه لم تعتبرها . ثم اذا اصرّ المتهم على انكار ما نسب اليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بأن تقطعه أشلاء ، شلواً بعد شلو ، أمام عينيه ، أو ان تُقرض لحمه بالمقراض واخيراً تحرقه ، وقد يحرق وهو لا يدري فيم احرق

وقد يبدو غريباً للقارىء ان يعرف ان محكمة التفتيش كانت تحكم على رجل قد مضى على موته نحو خمسين سنة فتأمر بنبشه من القبر وتستصفي جميع املاكه بعد ان تتهمه بالهرطقة التي ربما كان هو نفسه لا يعرف منها شيئاً ، دع عنك ورثته المساكين الذين يصادرون في املاكهم اعتباراً بأنها كانت ملك هـذا السلف الخاطىء فيخرجون من نعمة نشأوا وتقلبوا على بساطها شريدين مطرودين يمتهنهم كل

من كان دونهم في المقام والمال .

وكانت طائفة الرهبان الجوالين يتجرون بالدين يطرقون الناس وينزلون ببيوتهم يأكلون ويشربون هانئين في رغد ، فاذا أحسوا بضجر أو اساءة اتهموا رب البيت بالهرطقة ، ولم يكونوا يخشون شيئاً لأنهم كانوا يعرفون ان المتهم سيقر بالتهمة لفرط ما ينال جسمه من العذاب ، فاذا اعترف قتل ولم يقف الجمهور على غدرهم وباطلهم

وقد كان هؤلاء الرهبان ومحاكم التفتيش سبباً من اسباب النجاح الذي اصابته الدعاية البروتستانتية ،بل سبباً ايضاً من اسباب نزعة الالحاد التي فشت في العالم الاوروبي

مقام الخلافة في الاسلام

في القرن السابع كان الشرق الأدنى قد سئم سيطرة القسطنطينية لأن اختلال ادارتها كان قد بلغ شأوا عظيماً ولأن الخلافات المذهبية بين الطوائف كانت كرّهت الناس في حكوماتهم المحلية . فما إن هبت الريح العربية حتى تلقاها أهل سوريا ومصر كما يتلقى المحرور النسيم .وكانت روح الاسلام المهادنة والمحايدة ،فكان يقنع في أول ظهوره بالجزية من الذميين ويترك لهم شؤونهم الداخلية . وكان جنود العرب يقيمون في أرباض المدن بعيدين عن الأهالي فخف لذلك عبئهم على الاهالي وآثروهم على الرومانيين

واذا أردنا ان نسكنه روح الاسلام يجب ان نفهم روح الاعرابي في جزيرة العرب . فهي روح البداوة . والبدوي بطبيعة معيشته يتعصب لوحدانية الله تعصباً شديداً ويكره جميع ضروب الترف سواء أكان هذا الترف ذهنياً أم مادياً . وربما كان الوهابيون الآن أقرب من يمثل لنا

فورة الاسلام وهبوب العاصفة العربية على الدولة الرومانية

ويمتاز الاسلام من سائر الاديـــان بأنه ليس له كهنة سوى كاهن واحد هو الخليفة . ولست في قولي هـــذا أجهل المحاولات الشريفة التي حاول بها كتاب عصريون أن يجعلوا الخلافة منصباً مدنياً فقط ، فأن الذي يبعثهم على ذلك بواعث شريفة ولكنها تخالف التاريخ . فالواقع أن الخليفة حاكم مدني وديني معـــاً وأن الخوارج الذين خرجوا على علي بن ابي طالب انما فعلوا ذلك لأنه في نظرهم لم يستبد الاستبداد اللائق بالخلافة وأنه رضي بالتحكيم، مع أن الخلافة منصب ديني يستمد سلطته من الله ويشترط الاستبداد بالرأي . ولكن المتأمل في هذا الموضوع يرى نفسه في مأزق من الشك هل ينسب الاستبداد في الخلافة الى الروح البدوية العربية أم الى فقهاء الاسلام . من الجهة الواحدة نرى أن العربي البدوي يؤثر الحكم المطلق وبيئته تساعده على ذلك لانه في رحلته أو مقامه في وسط الصحراء كالمسافر على السفينة ينظر الى الربان نظرة الجندي للقائد، أو هو بين اخطار الغـــارات التي تنزل به في أي وقت يحتاج الى قائد مستبد يرى الرأي وينفذه في التو والساعة. ومن الجهة الأخرى نرى أن أمماً مسلمة كثيرة بعدت عن الروح العربية ولكن بقي بها استبداد الخـــلافة. وقد يقال ان القرآن لم ينص على الخلافة . وهـــذا صحيح ولكن الانجيل ايضاً لم ينص على البابوية . فكما انه لا يمكن ان

تخلي المسيحية من تبعات البابوية فكذلك لا يمكن ان تخلي الأسلام من تبعات الخلافة . والحقيقة أن البابوية والخلافة ترجعان الى التقاليد المأثورة لا الى الانجيل ولا الى القرآن

وقد انتفع الاسلام من عدم وجود الكهنة في نظامه ولكن بقاء المسحة الدينية على الخلافة كاد يزيل هذه الميزة التي للاسلام على الكنيسة المسيحية . فأن المهدي والهادي مثلاً اقترفا فعلا بخلافتهما من اضطهاد الزنادقة مثلما اقترف الكهنة بمحكمة التفتيش من اضطهاد الهراطقة . ومن يقرأ الخطب التي فاه بها بعض الخلفاء يشعر ان دعواهم بالحق الآلهي في الحكم الديني والدنيوي تزيد على دعوى الباباوات في رومية

وليس ههنا مجال الكلام على أصول الاسلام أو غاياته أو قيمته العمرانية وكل ما يمكن أن نقوله أنه دين يتسم بكراهية الترف وبشدة الايمان بالوحدانية وأن الوهابيين يمثلون روحه الآن أصدق تمثيل

* * *

والخليفة والبابا كلاهما كان له شأن في تاريخ حرية الفكر ، الاول في الشرق والثاني في الغرب . وكلاهما قد اعتمد على سلطة إلهية ليس للبشر سلطان عليها . ولذلك لا يمكن مؤلفاً يؤرخ حرية الفكر أن يهمل الالمام بتاريخهما والخليفة هو مصدر السلطات الدينية والمدنية لجميع

الامم الاسلامية . وهو من حيث الانتخاب يشبه البابا ، فكلاهما يُنتخب. والبيعة هي الشكل الذي عرفه المسلمون لتقرير الانتخاب ويقابلها عند البابا القرعة . فالبابا كان ولا يزال ينتخبه الكرادلة أي كبار الكهنة بالقرعة : أما الخليفة فكان مدة الخلفاء الراشدين ينتخب بالبيعة العلنية، تنتخبه الامة بأجمعها . ولكن في حين أن البابا لا يزال ينتخب للآن فأن الخلفاء منذ ابتداء الدولة الاموية الى آخر الدولة العباسية والعثمانية كانوا يتوارثون الخلافة

وقد كانت الخلافة مدة الخلفاء الراشدين ، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، يغلب على خلفائها الزهد والورع . فلما انتقلت الى الامويين زالت عنها المسحة الدينية تقريباً مع استثناء عمر بن عبد العزيز . وهي لو استمرت في دولة الامويين لاقتصرت على الحكم المدني وربمـا كان اهتدى المسلمون بالامويين الى نظام دستوري لحكمهم . فقد كان الامويون ينظرون الى العرب بعين التعطف والى الاسلام بعين الحسد وكانوا يكتمـون جميع النزعات الدينية

ولكن ظهرت الدولة العباسية التي تنتمي الى العباس عم النبي فعادت الصبغة الدينية . واستمر الخلفاء في صعود الى أن استولى الفرس والاتراك على البلاد ، فضيقوا على الخليفة واضطروه الى الانزواء في قصره ورتبوا له معاشاً فعاد أسوأ حالا من البابا الآن

واليك الآن خطبة لابي جعفر المنصور العباسي الذي مات سنة ٧٧٥ م. وتدلك على مقدار نظره الى سلطته قال:

« أيهـا الناس انما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده . وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه بأذنه . فقد جعلني الله عليه قفلا ان شاء أن يفتحني فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم. وان شاء أن يقفلني عليها أقفلني . فارغبوا الله وسلوه في هذا اليـوم الشريف الذي وهب إلكم من فضله ما أعلمكم به كتابه اذ يقول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينـا » أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم»

ولما استوزر الناصر الذي مات سنة ١٢٢٥ م. وزيره محمد بن برز القمي أذاع منشوراً بين الناس هـذا نصه:

« محمد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد . فمن اطاعه فقد أطاعنا . ومن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله أدخله الجنة . ومن عصاه فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله . ومن عصى الله أدخله النار »

واختلفت حظوظ الخلفاء من سطوة المنصور الى ذلة القاهر ، ومن أبهة الرشيد الى ورع عمر بن عبد العزيز : ويمكن إن يقال إن الاتراك هم الذين جعلوا الخلافة اسماً بلا مسمى فأنهم كانوا يخلعون الخلفاء ويسملون عيونهم ويعذبونهم . فمن ذلك ما فعلوه بالقـاهر الذي بويع سنة

سنة ٩٢٩ م . فأنهم « هجموا عليه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه : ثم حبس في دار السلطنة ومكث في الحبس مدة، ثم اخرج منه عند تقلب الاحوال . وكان مرة يحبس ومرة يفرج عنه . فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس ... فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم»

ولما دخل المغول بغـداد انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة وبقي الخليفة يمثل المجد التاريخي القديم ويولي الامراء باسمه الى أن جاء سليم سلطان الاتراك فاحتمله معه الى القسطنطينيـة . ولا يعرف هل نزل له الخليفة عن حقوق الخلافة ام ادعاها سليم دعوى القادر الغاصب . وبقيت الخلافة في سلاطين الاتراك الى أن ألغاها الاتراك حديثاً ومحوها من بلادهم

وكان من الخلفاء المحب للعلم والكاره له . فكان منهم المأمون الذي كان يأمر بنقل فلسفة الاغريق الى العربية . وكان منهم ايضاً المهدي الذي كان « شديداً على أهل الالحاد والزندقة لا تأخذه في اهلاكهم لومة لائم »

التسامح في الاسلام

من أحسن الكتب التي وضعت في اللغة العربية في بدء هذا القرن كتاب «ابن رشد وفلسفته» الذي ألفه فرح انطون . فهو أول كتاب ظهر في اللغة العربية يدافع عن حرية الفكر والتسامح الديني . وقد حدثت بين المؤلف والشيخ محمد عبده مناقشة حادة بشأن التسامح في الاسلام والنصرانية يمكن القارىء الراغب في التزيد في هذا الموضوع ان يرجع اليها في الكتاب نفسه . ولكننا وجدنا فيه للشيخ محمد عبده دفاعاً عن الاسلام يحسن بنا أن نثبته هنا حتى يذكره القارىء وهو يقرأ ما نقلناه من الكتب التاريخية بشأن اضطهاد بعض الخلفاء لغير المسلمين من النصارى واليهود . قال الشيخ محمد عبده :

« قال المستر دريبر أحد المؤرخين ومن كبار الفلاسفة :

« إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى والنسطوريين ومن اليهود على

مجرد الاحترام . بل فوضوا اليهم كثيراً من الاعمـال . ورقوهم الى المنـاصب في الدولة حتى أن هرون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ». وقال في موضع آخر :

«كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبـل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تـارة أخرى . ولم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون : « ان الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عبـاده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس النـاطقة وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة . هم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » . وقال في موضع آخر : « ان العرب زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده باسرع ممـا اتوا على حدود مملكة الرومانيين ». ولست في حاجة الى ذكر مـا أسس الخلفاء والملوك من المدارس واقاموا من المراصد وما حشدوا من الكتب في المكاتب لان هذا خارج عن بحثنا الآن

« ... اذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور : كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور . كانت له زوجـة عجوز لا

تشتهي فأشفق عليه المنصور وأنفذ اليه ثلاث جوار حسان فردهن وقال : « ان ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية ». فأعلى مكانته حتى على وزرائه . ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشياً يسأل عن حاله فأستأذنه الحكيم في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه . فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال: « رضيت ان أكون مع آبائي في جنة أو نار ». فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة الآف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا مات في الطريق الى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده، فأشار الى عيسى ابن شهلانا أحد تلاميذه . فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه ، فشغر الخليفة بذلك وطرده

« وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده ابو سهل، وكانا فارسيين على مذهب الفرس : ثم كانت ذرية مسلمة لابي سهل . وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة

« وممن حظي بالمكانة العليا عند الخلفاء المهدي تيوفيل ابن توما النصراني المنجم، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس الى السريانية بأفصح عبارة

« وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني (الذي تقدم ان الرشيد جعله مديراً لجميع مدارس بغداد) ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما كان يجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه

« وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون اقامه كذلك اميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل مارستان جندي سابور

« وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم، ولما مات جزع عليه جزعاً شديداً وأمر ان يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

« وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة رومية من الحرير بها فتق . فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتّى وصل الى النيفق وهو ما اتسع من الثوب . ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل بماذا تعلمون ان الموسوس يحتاج الى الشد ؟ فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه .

فضحك المتوكل حتّى استلقى . وفي ايام المتوكل اشتهر حنين بن اسحاق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب ارسطو وغيره . وامتحن المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لا تفل ، فأقطعه اقطاعات واسعة. وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى ، فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه ما يترجم ذهباً ، وكان بينه وبين الطيفوري النصراني محاســدة افضت الى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة ، فمات غماً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة ، وهذا الطيفوري ايضاً كان من المقربين عند الخلفاء

« وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامـــة في زمنه ايام خلافة الراضي متّى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري .كان متفنناً في جميع العلوم العقلية أخذ عنه ابو نصر الفارابي وانتهت اليه الرياسة في بغداد ، وكان من أهل دير قنى ونشأ في مدرسة مـــار ماري وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين

« ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة الاسلام وهو نصراني طلبه الخليفة الى بغداد لاجل الترجمة . ثم يحيي بن عهدي بن حميد بن زكريـــا المنطقي انتهت اليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته وقرأ على متى ابن يونس وعلى ابي نصر الفارابي .

« ومنهم ابو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم ، قالوا كان كاتب الجاثليق متميزاً في النصارى ببغداد ، وكان يقرىء صناعة الطب في المارستان العضدي ، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا ، والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

« وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحراني الصابىء من طائفة الصابئين المعروفة . تربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور وبلغ من علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره . وله تآليف كثيرة من المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه ، وولد ثابت هذا سنة احدى عشرة ومائتين بحرّان ، ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم ابيهما ، ومن حفدته ابو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ما علمت ، ومدحهم كثير من شعراء المسلمين ، وهم صابئة »

انتهى ما أردناه من كلام الشيخ محمد عبده ومنه يرى القارىء شيئين :

١ — تسامح الخلفاء ورعايتهم للعلماء النصارى

٢ — تشجيعهم للعلوم

* * *

في معظم حوادث الاضطهاد الديني نجد أن رجل الدين

يتعلل بالدين وغايته في الحقيقة السياسة . ولولا المصلحة السياسية ايضاً لبقي الدين معتكفاً منعزلاً وحده في جامع أو صومعة : فقد تسمع ان ريتشارد قلب الاسد صادر اليهود في أموالهم في انكلترا ، يتعلل في ذلك بأنهم يهود كفار وفي الوقت نفسه ينتفع بأموالهم في الحروب الصليبية . وكذلك الحال في كل اضطهاد تقريباً نزل باليهود ، الأصل فيه هو السياسة والوسيلة هي الدين : ولذلك نجد ان النظر الديني لليهود والنصارى يختلف باختلاف الزمان والمكان اي باختلاف النظر السياسي . فقد قضت السياسة على عمر بن الخطاب ان يمحو النصرانية واليهودية من جزيرة العرب فمحاها

وقضت السياسة ايضاً على مسلمي الاندلس ان يتسامحوا مع النصارى فبلغ من تسامحهم مع استثناء بعض نزعات التعصب ان جعلوا يوم الأحد يوم البطالة وأذنوا للمبشرين بالنصرانية بالوقوف على أبواب الجوامع لدعوة المسلمين الى النصرانية . وكان امراؤهم يتخذون هيئة الامراء النصارى في اللباس ويصاهرونهم . وكذلك نرى من التسامح في مصر شيئاً كثيراً حين كان امراء مصر وخلفاؤها يستوزرون الاقباط . وقيمة هذا التسامح تزداد وضوحاً عندما نقابله بالمعاملة التي لاقاها المسلمون واليهود على ايدي الاسبانيين الذين استأصلوهم من اسبانيا بعد ان فتكت بهم محكمة التفتيش

وفيما يلي سنذكر ثلاثة من خلفاء الاسلام اثنـــان منهم من الطراز الأول في العدل كما يفهمه كل منهما وواحد لا شك في هوسه . وسترى الان ان مـا يعزى من الاضطهاد للاثنين الاولين وهما عمر بن الخطاب والمأمون انما هو اشبه بالاضطهاد السياسي منه بالاضطهاد الديني . واما ما يعزى الى الثالث وهو الحاكم بأمر الله فضرب من الهوس ، ولكن يبقى بعد ذلك ان هؤلاء الثلاثة اضطهدوا اليهود والنصارى وتعللوا بالدين باضطهادهم

فقد كان عمر بن الخطاب يقصد الى رفع شأن العرب وتوثيق عرى قوميتهم فطرد اليهود والنصارى من الجزيرة . ثم أمر كنائس جديدة أو ترميم مـــا تهدم ، ومنع النصارى من اقامة الصلبان فوق الكنائس كما منعهم من حمل كتبهم المقدسة في المواكب أو الاماكن العامـــة ، واجبرهم على تخفيض صوتهم عند الترتيل في الكنائس اذا كانت هذه الكنائس في حـــي يسكنه المسلمون ، ومنعهم من ايقاد الشمع والمشاعل في المشاهد وقت تشييع الجنائز ، وحرّم عليهم محاولة تنصير مسلم أو ان يحولوا دون اسلام نصراني ، ومنعهم من أن يتخذوا هيئة المسلمين في اللباس وحظر عليهم التسمّي بأسماء عربية أو حمل السلاح . وكتب الى عمرو بن العاص والي مصر يأمره بأن يختم في رقاب أهل الذمـــة بالرصاص ، وان تجزّ نواصيهم وان يركبوا عرضاً ، وان يظهروا زنانيرهم

اما المأمون فأن شهرته بالعدل لا تقل عن شهرة عمر. وقد ذكر الكندي عنه قصة جرت بمصر وقت زيارته لها تدل على نظره للمخـــالفين للدين . فانه عندما كاد يبلغ تخوم مصر الشرقية انبيء بخروج المسلمين والاقباط في سمنود متحدين على الوالي لفرط ما كابدوا من الجور وما تحملوا من الضرائب الفادحة . فتغاضب المأمون وعنف الوالي ، وحمله هو وجباته اللوم كله وتوعدهم بالعقاب القريب ، وتعالم الناس بما فاه به المأمون . وبلغ الثائرين ما قاله وما توعد به الوالي وجباة الضرائب . فاتفقوا مسلمين واقباطاً على أن يستأمنوا للمأمون وينزلوا على حكمه . فلما استأمنوا وسلموا سلاحهم عفا عن المسلمين ثم قبض على جميع الاقباط رجالاً ونساء وهم يعدون بالآلاف فقتل جميع الرجال وباع النساء والصبيان

بقي الحاكم الخليفة الفاطمي الذي قتل بالقاهرة سنـــة ١٠٢١ م. وهو يختلف عن عمر والمأمون من حيث أن التاريخ يصفه بالهوس والسخافة بمقدار ما يصفهما بالعقل والحكمة . واضطهاده للاقباط في مصر أكثره هوس ، فأنه أمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في أوساطهم ومنعهم من عمـــل الشعانين . وقبض على ما في الكنائس وأدخله على الاسلام،وعاملهم بغير ذلك من ضروب التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل في مصر . فمن هوسه أنه أجبرهم على أن يعلقوا الصلبان من أعناقهم بطول

الصليب ذراع ووزنه خمسة أرطال . وأجبر اليهود على أن يعلقوا من أعناقهم قرامي الخشب بوزن صلبان النصارى . والا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاة وأن تكون ركبهم من الخشب والا يستخدموا أحداً من المسلمين ولا يركبوا حماراً لمكار مسلم . ولعل معاملته لهم أعظم ما أصابهم من الاضطهاد مدة الحكم الاسلامي

على أن معاملته للمسلمين لم تكن عادلة وان كانت دون الاضطهاد ، فقد منعهم من أكل الملوخية والجرجير ومنع النساء من التبرج . وأمر الخطباء بلعن السلف.ويقال أنه هو نفسه كفر بالأسلام وحاول اقامة دين جديد . وهو مؤسس دار الحكمة التي كانت تنشر الكفر والزندقة

ولما اشتد اضطهاده للاقباط أسلم معظمهم فلما رجع عن اضطهاده أذن لهم في الارتداد فارتدوا

ففي هذه الامثلة الثلاثة نرى اضطهاداً صريحاً ولكن لا يمكننا مع الانصاف أن ننسب هذا الاضطهاد للأسلام . فأن معاملة عمر والمأمون للنصارى واليهود انما كان تدفعهما إليها المصلحة القومية وسياسة الدولة . اما معاملة الحاكم فهوس لا غش فيه

ويحسن بنا أن نختم هذا الفصل بهذه القطعة الآتية التي نقلناها من تاريخ الاتراك لمحمد فريد بك عن محمد الفاتح ومعاملته للنصارى حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ قال :

« ثم دخل السلطان المدينـــة عند الظهر فوجد الجنود

مشتغلة بالسلب والنهب، فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء فساد الامن . ثم زار كنيسة ايا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة اعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين . وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في كافة الجهات أنه لا يعارض في اقامة شعائر ديانة المسيحيين بل أنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ املاكهم . فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطـــاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين. ثم جمع ائمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروا جورج سكولايوس. واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيساً لطائفة الاروام واحتفل بتثبيته بنفس الابهة والنظام اللذين كان يعمل بهما للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين، وأعطاه حرساً من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالاروام، وعين معه في ذلك مجلساً مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هـــذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس. وفي مقابلة هذه فرض عليهم دفع الخراج مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط ،

ابن حنبل وخلق القرآن

في عصر المأمون والمعتصم ، وهما من خلفـــاء الدولة العباسية ، ظهر القول بخلق القرآن ، وحُمل الناس على هذا القول ، وضرب المخالفون وعذبوا . وكان ابن حنبل إماماً عظيما من ائمة المسلمين ، سئل عن رأيه في هـــذه البدعة فأنكرها ، فضربه المعتصم وحبسه وعـــذبه وهو مصرّ ، وبقي على إصراره حتى مات . وكان ابن حنبل يرى ان القرآن لم يحدث في عهد النبي وانما هو خالد

ولد ابن حنبل سنة ٧٨١ ومات سنة ٨٥٦ م . وكان إمام المحدثين ، صنف كتاب المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وكان من أصحاب الامـــام الشافعي وخواصه . ولم يزل مصاحبه الى ان ارتحل الشافعي الى مصر ، وقال في حقه : « خرجت من بغداد وما خلفت أتقى ولا أفقه من ابن حنبل .. وكان شديد الاتباع للسنن ، أخذ عنه كثيرون من الائمة . وطاف ابن حنبل في بلاد

كثيرة ودخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، وقبره ببغداد مشهور »

قال الدميري : « ان القول بخلق القرآن ظهر في أيام الرشيد . وكان الناس فيه بين أخذ وترك الى زمن المأمون الذي حمل الناس على القول بخلق القرآن ، وكل من لم يقل بخلق القرآن عاقبه أشد عقوبة . وكان الامام احمد بن حنبل إمام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن فحمل الى المأمون مقيداً ومات المأمون قبل وصوله اليه »

وتولى المعتصم بعد المأمون وكان ابن حنبل بالسجن ، وكان المأمون قد عهد الى أخيه المعتصم بالخلافة وأوصاه بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن . واستمر الامام احمد محبوساً الى ان بويع المعتصم فأحضر الى بغداد وعقد له المعتصم مجلساً للمناظرة « فيـه عبد الرحمن ابن اسحق والقاضي احمد بن ابي دؤاد وغيرهما . فناظروه ثلاثة ايام ولم يزل معهم في جدال الى اليوم الرابـع فأمر بضربه ، فضرب بالسياط ولم يزل عن الصراط الى ان أغمي عليه . ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه بارية . وديس عليه . ثم حمـل وصار الى منزله وكانت مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً

« ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتي ويحدث الى ان مات المعتصم وولي الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة وقال للامام احمد : لا تجمعن

اليك احداً ولا تسكن في بلد انا فيه . فأقام الامام احمد مختفياً لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق ، وولي المتوكل فرفع المحنة وأمر باحضار الامام احمد واكرامه واعزازه وأطلق له مالاً كثيراً فلم يقبله وفرقه على الفقراء والمساكين »

ومن الحكاية التالية نفهم معنى القول بخلق القرآن :

« حكي ان الامام الشافعي رضي الله عنه لما كان بمصر رأى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو يقول: بشر احمد بن حنبل بالجنة على بلوى تصيبه بأنه يدعى الى القول بخلق القرآن فلا يجيب الى ذلك بل يقول هو منزل غير مخلوق

قال الدميري : « ان المعتصم كان يخلو به (أي بابن حنبل) ويقول له : ويحك يا احمد انا والله عليك شفيق وأني لأشفق عليك مثل شفقتي على ابني .. فأجبني ، فوالله لئن أجبتني لأطلقن غلك بيدي ولأطأن عتبتك ولأركبن اليك بجندي . فيقول : يا امير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأذا طال به المجلس ضجر وقام ورد احمد الى المكان الذي كان فيه . وتردد اليه رسل المعتصم يقولون : يا احمد ، أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول في القرآن ؟ فيرد عليهم كما رد اولاً . فلما كان اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك

الزيات والقاضي احمـــد بن ابي دؤاد . فقال المعتصم : كلموه وناظروه . فلم يزالوا معه في جدل الى ان قالوا : يا امير المؤمنين اقتله ودمه في اعناقنا . فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الامام احمد فخر مغشياً عليه . فتمعرت وجوه وفود خراسان وكان عم احمد فيهم ، فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بمـــاء ورش على وجهه . فلما أفاق من غشيته رفع رأسه الى عمـه وقال : يا عم لعل هذا الماء الذي رش على وجهي غضب عليه صاحبه

« فقال المعتصم : ويحكم أما ترون ما يتهجم به علي هذا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لا رفعت السوط عنه حتى يقول القرآن مخلوق . ثم التفت الى احمد وأعاد عليه القول ، فرد احمد كالاول . فـلم يزل كذلك حتى ضجر واطال المجلس ، فعند ذلك قـال : عليك لعنة الله ، لقـــد طمعت فيك قبل هذا .. خذوه واخلعوه واسحبوه . فأخـــذ وسحب ثم خلع . ثم قال المعتصم : السياط .. وشدوا يديه فتخلعتا ، ولم يزل احمد يتوجع منها حتى مات . ثم قال المعتصم للجلادين : تقدموا . ونظر الى السياط فقال : ائتوا بغيرها

وتناوبه الجلادون بالضرب . وجعل بعضهم يقول : يا احمد إمامك على رأسك قائم فأجبه ، وعجيف ينخسه بالسيف ويقول : أتريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟ وبعضهم يقول : يا امير المؤمنين اجعل دمه في عنقي

وضرب ثمانية عشر سوطاً وحمل الى حجرة . ثم وجه المعتصم رجلاً ينظر الضرب والجراحات ويعالجه . فنظر اليه وقال : والله لقد رأيت من ضرب الف سوط فما رأيت أشد ضرباً من هذا . ثم عالجه وبقي أثر الضرب بيّناً في ظهره الى ان مات »

قال الدميري : ثم قام بالأمر بعد المعتصم ابنه هارون الواثق بالله .. ولما ولي قتل احمد بن نصر الخزاعي على القول بخلق القرآن ونصب رأسه الى الشرق فدار الى القبلة فأجلس رجلاً معه رمح أو قصبة فكان كلما دار الرأس الى القبلة أداره الى الشرق

ولم يقتل بعد الخزاعي أحد . فقد أصر ابن حنبل على دفاعه عن حقه في اعتقاده ، واستشهد الخزاعي في سبيل ذلك . وانتهت الحال بانتصار الناس في معركة صغيرة من معارك الحرية الفكرية

الاسلام والفنون والعلوم

كان المسلمون احدى حلقات الاتصال بين الاغريق القدماء واوربا الحديثة. نقلوا علوم الاغريق وفلسفاتهم الى العربية إما من الاغريقية مباشرة واما من السريانية. وامتاز العرب عن الاغريق بنزعة علمية في العلوم كان أساسها وغايتها احالة المعادن الخسيسة الى ذهب. وقد اشتغل الاغريق بالعلوم ولكن نزعتهم فيها كانت نظرية اذا استثنينا ارسطوطاليس وارشميدس. ولذلك اتجه نشاط الاغريق الى ما يوافق هذه النزعة في الادب والفلسفة. ولكن المسلمين عمدوا الى التجارب بالنار والبوتقة فعرفوا اشياء ثمينة في الكيمياء. وقد انتفعت اوربا مما احتفظ به العرب من كتب الاغريق كما انتفعت ايضاً بتلك النزعة التجريبية العلمية التي اتسم بها كيميائيو العرب. وانتفعت اوربا من العرب بالنزعة الرومانتيكية الخيالية « Romantic » التي هي أصل القصص الحديثة. فقد كانت قصص الحب

والاشعار الغزلية منتشرة بين عرب الاندلس، فلما انتقلت الى اوربا في جنوب فرنسا أحدثت تلك الحركة الرومانتيكية الخيالية التي يتسم بها جزء كبير من الادب الاوربي الحديث

يتبين للقاريء من ذلك أن اوربا كانت مدة القرون الوسطى في ظلام الجهل، وأن العرب في ذلك الوقت كانوا في حركة علمية صحيحة الوسائل مخطئة الغاية، وفي حركة فلسفية تجديدية قائمة على امجاد الفلسفات الاغريقية السابقة. وقد كان «فم الذهب» بطريك القسطنطينية يفخر في القرن الرابع بأن كتب القدماء الوثنيين قد زالت من الارض. فلما كان القرن الثامن كان المسلمون في بغداد ينفقون الاموال الجمة في نقل هذه الكتب الى لغتهم ويفخرون بالعلم والعلماء

هذا من حيث العلم والفلسفة. فأن رجال الدين بين المسلمين لم يعارضوها الا قليلاً كما سنرى بعد. اما من حيث الادب وفنونه جميعها فان العرب قصروا تقصيراً شنيعاً، وبعض هذا التقصير قد يرجع الى الدين الذي قيدهم ومنعهم من الانبعاث لمطالبه

وقبل ان نتكلم عن الادب يجب أن نقول ان الدين أيضاً، أو الخلافة جعلت الطب أسخف لعبة لعب بها العرب في تاريخهم. فقد منعوا التشريح واعتبروه مُثلة يحرمها الدين فلم يعرف أطباء العرب شيئاً عن جسم

الانسان ووقفت معارفهم عند حد النقول مما قال جالينوس وقال ابوقراط . وصار علم الطب بذلك أشبه شيء بعلم الحديث . حتى لقد حفزت الغريزة العلمية أحد الاطباء النصارى في العراق بأن يعرف شيئاً عن الجسم فاشترى قرداً وأخذ يشرحه ويدرس الاعضاء بتشريحه قانعاً من الاصل بالبدل . ويمكن القارىء أن يستنتج أن « التشخيص » الذي لا تمكن المعالجة بدونه كان مجهولاً عند اطباء العرب .

اما الأدب فان العرب تقيدوا من البدء بالقرآن فلم ينقلوا شيئاً من الادب الاغريقي للاشارات الوثنية التي فيه عن الآلهة والمعابد . ثم كانت الروح البدوية مائدة أيضاً فقوطعت الفنون الجميلة . لأن البدوي يكره بطبيعته جميع ضروب الترف والحضارة وهو نفسه يعيش في صحراء لا يحتاج الى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش ، ولذلك حرم التصوير كما حرمت صناعة التماثيل . وصار الغناء والموسيقى لهواً يتلهى به السكارى،وبلغ من احتقارهما أن منعت شهادة المغني والموسيقي امام القاضي . وقد اكتسبنا نحن بحكم التقاليد شيئاً من هذا النظر للموسيقى والغناء فمعظم من يذهب منا لسماعها يحتاج الى الشراب ...

وعاد الادب العربي بعد ذلك يجتر نفسه ، ويعيش على الالفاظ والصنعة ، وجرى به ذلك القدر الذي جرى على الفنون البيزنطية حين هجرت الحياة واعتمدت على الصنعة فصارت مسخاً من الحياة . وتدهور الغناء والرقص

والموسيقى الى ضروب من الخلاعة والتخنث لا يستطيع رجل له كرامة الرجال أن يشاهدها بلا اشمئزاز . دع عنك ممارستها

ولكننا نعود فنقول : هل تحريم التصوير وصناعة التماثيل يعود الى تفاسير الفقهاء للاسلام أم يعود الى الروح البدوية التي كان يتسم بها العرب ؟ وقد نجيب على ذلك بأن هؤلاء الفقهاء كانوا هم أنفسهم عرباً شديدي النزوع الى البداوة

الغزالي والحرية الفكرية

ليس في مستطاع مؤلف ان يجرد نفسه من الغرض . ولذلك يحسن بنا الا نحكم على الاسلام ومقدار تقييده للحرية وانما نترك هذه المهمة لامام كبير من ائمته .. وهـــذا الامام هو الغزالي الذي مـات سنة ٥٠٥ هـ . فأن كتابه « إحياء علوم الدين » قد مضى نحو ٩٠٠ سنة وهو عمدة رجال الدين المسلمين لم يطعن عليه أحد . والرجل أيضاً يمتاز بصراحته واخلاصه ونزاهته . فأنك عندما تقرأ حياته تشعر أنه لا يوارب، وانه لو دخله شك لما تحرج من اعلانه ولو كان فيه تلفه : فهو اذا وضح لنـــا الاسلام فأنما يوضحه كما يفهمه رجل مؤمن به تمام الايمان . وسنعتمد على الاقتباس من نص كلامه اكثر ما نعتمد على الشرح حتى لا نخطىء بالتأويل

وقد كانت تتنازع الاسلام في الوقت الذي نشأ فيـــه الغزالي نزعتان . الواحدة سنية ومكانها بغـــداد ومركز

ثقافتها المدرسة النظامية، والاخرى شيعية ومكانها الازهر في القاهرة . ونشأ الغزالي فوجد العالم الديني مقسوماً تتنازعه هاتان النزعتان وتتهجم عليه نزعات فلسفية قــوية بعضها مشوب بالزندقة السياسية التي ترمي الى هدم كيان الاسلام. وتعلم الغزالي في المدرسة النظامية في بغــداد ثم صار هو نفسه مدرساً فيها . واليك ما يقوله عن نفسه مما يكشف شيئاً من مجاهدات ضميره :

« لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الان وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً الا وأحب ان اطلع على بطانته ولا ظاهرياً الا وأريد ان أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفياً الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلماً الا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً الا وأحرص على العثور على سر صوفيته ولا متعبداً الا وأرصد ما يرجو اليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان العطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى

وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي . حتى انحلت عني رابطة التقليد وانحسرت عني العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا »

وقلنا إنه اشتغل بالتدريس ولكن نفسه الدينية طمت به فآثر نوعاً من الرهبانية . فترك الاهل والولد والناس وأحوال الدنيا جميعها وعمد الى العزلة يناجي فيها ربه . واليك ما يقوله عن هذه المجاهدة النفسية :

« ثم لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من جميع الجوانب . ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فأذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة .ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . فتيقنت أني على شفا جرف هاو ، وأني قد أشرفت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار اصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه اخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملته فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام . ومنادي الايمان ينادي : الرحيل . الرحيل . فلم يبق من العمر الا القليل »

ثم يقول : « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة اشهر أولها رجب سنة ثمان وأربعين واربعمائة. وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار اذ قفل الله علـى لساني حتى اعتقل عن التدريس . فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتة. ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب »

وهذا كلام يقطر منه الاخلاص والنزاهة . ومع ذلك لم يكن الغزالي ولياً أبله يتمسح به الناس ويلبس المرقعات ويتواجد بالصيحات ، بل كان رجـلا مثقفاً ذكياً درس المنطق والفلسفة وأكب على فهم الانجيل والتوراة، فهو اذا شرح الاسلام فانما يشرحه على الوجه الذي يجب أن يفهم عليه، وهو اذا حكم بتكفير أحد من المسلمين فأنمـا يفعل ذلك مدفوعاً بقوة ايمانه

وماذا كان أثر هذا العالم المسلم في الشرق العربي ؟ كان اثره أنه قاوم الفلسفة حتى هدمها . وكفّر جميع من يدرسها . وكان بعـد ذلك أقوى أساس بني عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين حتى انتقلت الفلسفة من الشرق الى الغرب اي الى الاندلس . وليس يمكنك أن تنقم شيئاً على الغزالي من هذه الوجهة سوى أنه كان ينظر نظراً دينياً ضيقاً

فاليك مثلا ما يقول عن الطبيعيين : « والطبيعيون قوم

أكثروا بحثهم عن عـالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . واكثروا الخوض في علم تشريح اعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الامور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ومنافع الاعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . إلا ان هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان . فظنوا ان القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه ايضاً . وانها تبطل ببطلان مزاجه . فتنعدم . ثم انعدمت فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا ايضاً.فذهبوا الى ان النفس تموت ولا تعود . فجحدوا الآخرة . وهؤلاء ايضاً زنادقة لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول وباليوم الآخر»

ومن هذه القطعة يرى القارىء ان الغزالي يفهم ما يقول تمام الفهم ويحكم على من يخالفه في رأيه الديني بالزندقة ويجزم في حكمه . والمسافة بين الحكم بالزندقة والحكم بالقتل قريبة جداً

وقد عاش الغزالي بعد ارسطوطانيس بنحو ١٤٠٠ سنة ومع ذلك لم يبخل عليه بالتكفير وعلى كل من اتبعه من فلاسفة المسلمين.واليك منه هذه القطعة : « ثم رد ارسطوطاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من

الآلهين رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، إلا انه استقى ايضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهم »

ومن هذا تتبين ان اخلاص الغزالي وذكاءه لم ينفعاه شيئاً عند ما اقتصر على النظر الديني الضيق . وأنه لو كانت مقاليد الاحكام في يده لما تحرج من قتل من سماهم زنادقة

ثم اليك الان النظر الديني لما نسميه نحن بالفنون الجميلة كما يفهمه الغزالي . قال :

« وليتجنب (المسلم) صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين . » وأيضاً : « والصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر . فأن كان الموضع مرتفعاً لا تصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة . وليعدل الى حمام آخر فان مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه ان يشوه وجهها ويبطل به صورتها »

والآن ، يجب ان نقف ايها القارىء ونتأمل في الآثار التي أتلفت اطراداً مع هذه النزعة البدوية أو اتباعاً لهذه النصيحة ، ثم نذكر ايضاً مقدار التثبيط الذي أصاب كل من كان متهيئاً بطبعه لخدمة الفنون

وترقيتها . واذا كان الغزالي على اخلاصه وفهمه يقول هذا القول في الفنون الجميلة وفي الفلسفة فماذا يقول الآخرون من رجال الدين الذين لعلهم لم يبلغوا مبلغــه في الفهم والنزاهة أو الثقافة ؟

حرية التصوف وقتل الحلاج

الدين دينان : دين رسمي تقليدي ينفذ الى القلب أو يطفو على اللسان بقــوة سلطة خارجية يؤيدها السيف أو العادة . ودين ضميري ينبــع من القلب يقرر صلة الانسان بالكون

فالدين الاول له اسمــاء عديدة من يهودية وبوذية ومسيحية واسلام

والدين الثاني له اسم واحد هو الصوفية

والصوفية العربية لا تختلف عن الصوفية الهندية القديمة أو عن الصوفية الاوروبية الحديثة في شيء . والمعقول انها يجب الا تختلف لأنها لم تنشأ على أصول تاريخية تستمد وحيهــا من الوسط الزماني والمكاني فتختلف باختلاف الجغرافية والتاريخ ، وانما تنشأ من وحي الذهن وتستصفى من حوار العقل والمنطق . فاذا كان العقل في الهند ومصر واميركا يقول بأن خمسة وخمسة تساوي عشرة فأنه يقول

ايضاً باستنتاجات صوفية واحدة لا يختلف فيها .

وعندما احتك المسلمون بالهنود والفرس وعرفوا فلسفة افلاطون نزعت افكارهم الى الصوفية . وتسربت هـذه النزعة الى أئمة الدين وصبغت الفلسفة الاسلامية .

ويمكننا ان نلخص الافكار الصوفية السائدة في ما يلي :

١ — ان الله ليس شخصاً خارجاً عنا بل هو قوة تشمل الكون وانه يمكننا نحن بمجاهدة الشهوات التي تربطنا بالمادة ان نتصل بهذه القوة فتحل في انفسنا وتكشف لنا بذلك اسرار الكون

٢ — ان بني الانسان كلهم اخوة ، لأنهم كلهم يعبرون عن هذه القوة الحالّة فيهم ، فصلة التعامل بينهم يجب أن تكون صلة الحب لا المنافسة أو النزاع

وعلى هذين الاصلين نجد ان ابن سينا يقول مخاطباً الانسان :

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

والمسيح يقول : « لا يأتي ملكوت الله بمراقبة . ولا يقولون : هوذا ههنا أو هوذا هنالك . لان ها ملكوت الله داخلكم »

ويقول محي الدين بن عربي الصوفي الاندلسي :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني

وقد صار قلبي قابلا كل صورة

فمرعى لغـزلان ودير لرهبـان

وبيت لاوثان وكعبـة طائـف

والـواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب انى توجهت

ركائبـه فالحب ديني وايمـاني

ويحسن بنا أن ننقل قطعة وافية من كتب براهمـة الهندوكيين حتى يقف منها القارىء على أصل النزعات الصوفية في الاسلام . فقد جاء في صوامي فيفيكا ناندا :

« كيف يبتئس ذلك الذي يرى وحـدة الوجود ، وحدة الحياة ، وحدة كل شيء ؟

« الا ان هذا الانفصال بين الرجل وأخيه وبين الرجل والمرأة وبين الرجل والطفل وبين الامة والامة وبين الارض والقمر وبين القمر والشمس ، هـذا الانفصال بين الذرة والذرة ، هو علة كل الشقاء . وقد قالت الفيدانتا إن هذا الانفصال لا وجود له ولا حقيقة له . انما هو يبدو على السطح فقط . أما في قرارة الاشياء فليس سوى الوحدة. واذا انت تغلغلت الى قرارة نفسك وجدت الوحدة بين الانسان والانسان وبين المرأة والطفل...وبين العالي والداني وبين الغني والفقير وبين الآلهة والنـاس . إنهم كلهم واحد . واذا ما تعمقت ألفيت الوحدة أيضاً في الحيوان...

ومن وصل الى هنا فقد انقشعت عندئذ عنه الغشاوة

« اذ كيف يغشى على بصيرته ؟ فأنه يعرف حقيقة كل شيء وسر كل شيء . وكيف يناله شقاء؟ اذ ماذا يرغب وقد وصل الى قرارة كل شيء حتى الله ؟ ذلك المركز . تلك الوحدة . وهذه هي النعمة الابدية والمعرفة الخالدة والوجود الدائم ، ففي هذا المركز وفي هذه الحقيقة لا يمكن أن نحزن على أحد ولا أن نرثي لأحد ....

« وعندما يرى المرء أنه هو والكائن الذي لا يتناهى واحد ، وعندما تنعدم هذه الانفصالات وينعدم الناس والملائكة والحيوان والنبات في هذه الوحدة فعندئذ يزول كل خوف . اذ ماذا نخشى ونخاف ؟ هل في قدرتي أن أقتل نفسي أو اوذي نفسي ؟ هل في قدرتك أن تؤذي نفسك ؟

« فهنا تزول جميع الاحزان . اذ ماذا يولد الاحزان؟ فأنا الكائن الواحد . فأنا الكائن الوحيد في الوجود . وهنا تزول جميع الاحساد . اذ من أحسد ؟ هل أحسد نفسي؟ فليس في الكون كله غيري انا. فلنقض اذن على هـذا التفريق ، على تلك الخرافة التي تقول بتعدد الكائنات ؟»

* * *

وانتشرت هذه الافكار الصوفية بين المسلمين، ونشأت فرق اسلامية عديدة غايتها التوفيق بين المذاهب الاسلامية والنزعات الصوفية . وامتزجت الاغراض السياسية بالاغراض الدينية وصارت الدولة تنشأ وتهدم بقوة هذه الفرق .

ورأى خلفاء بغداد أن المبالغة في التصوف خروج من الاسلام وزعزعة للدولة القائمة عليه فكانوا لذلك يضطهدون المتصوفين

ولنضرب مثالاً على ذلك معاملة الخليفة المقتدر للحلاج.

فقد ذكر ابن خلكان ترجمة الحلاج ونحن نقتضبها عنه في ما يلي :

« قال هو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس ونشأ بواسط والعراق وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره. والناس في أمره مختلفون فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره.ورأيت في كتاب مشكاة الانوار قوله : « ما في الجبة الا الله » . وهذه الاطلاقات التي ينبو السمع عنها وعن ذكرها وحملها كلها على محامل حسنة وأولها ... وكان جده مجوسياً وصحب أبا القاسم الجنيد ومن في طبقته . وأفتى أكثر علماء عصره بأباحة دمه . ويقال إن أبا العباس ابن سريج كان اذا سئل عنه قال : « هذا رجل خفي عني حاله وما أقول فيه شيئاً » . وكان قد جرى منه كلام في مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر بحضرة القاضي ابي عمر فأفتى بحل دمه وكتب خطه بذلك معه من حضر المجلس من الفقهاء فقال لهم الحلاج : « ظهري حمى ودمي حرام . وما يحل لكم أن تتقولوا علي ... وأنا

اعتقادي الاسلام ومذهبي السنة وتفضيل الائمة الاربعة الخلفـــاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ولي كتب في السنة .. فالله الله في دمي». ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم الى أن استكملوا ونهضوا من المجلس . وحمل الحلاج الى السجن. وكتب الوزير الى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس .. فعاد جواب المقتدر بأنه اذا كان قد أفتى القضاة بقتله فليسلم الى صاحب الشرطة وليتقدم اليه بضربه ألف سوط، فان مات من الضرب والا ضربه ألف سوط اخرى . ثم يضرب عنقه. فسلمه الوزير الى الشرطي وقال له ما رسم به المقتدر. وقال: ان لم يتلف فتقطع يده ثم رجله ثم تحز رقبته وتحرق جثته. وان خدعك وقال لك : انا اجري الفرات ودجلة ذهباً وفضة ، فلا تقبل ذلك منه ولا ترفع العقوبة عنه »

وتسلمه الشرطي ليلاً وقتله سنة تسع وثلاثمائة هجرية.

وسيرى القارىء أن السهروردي قتل بفتوى الفقهاء في حكم صلاح الدين لصوفيته أيضاً

الثورة على الاسلام

نرى في تاريخ الفرق الاسلامية من حيث منشأها واغراضها انها تنقسم قسمين : فمنها تلك الفرق التي لم تكن ترمي الى أبعد من الغاية الدينية والتصوف وتتغذى من الاديان الاخرى كالمسيحية والمانوية والفلسفات الاغريقية . ومنها تلك الفرق الاخرى التي تسترت بالدين وكانت ترمي منه الى غاية سياسية لأن دعاتها عرفوا أن الدعاية السياسية اذا لم ترتكز على دعائم الدين لم تثبت أمام الخلافة . ولكننا نرى شيئاً عجيباً في بعض هذه الفرق وهي انها نزعت الى الالحاد والى هدم الاسلام . فالقرامطة لا يمكن ان نشك في انهم أرادوا هدم الاسلام حين عاثوا في دولة العباسيين في العراق وحين هدموا الكعبة ونقلوا الحجر الاسود من مكانه . وكذلك لا يكاد يشك الانسان في دار الحكمة التي اسسها الحاكم بأمر الله بالقاهرة كانت تعلم الناس الالحاد ، ولكن مع تسليمنا بذلك يبقى عندنا شك

في النية الباعثة لتعلم الالحاد . فاذا كانت هذه النية سياسية غايتها تأسيس دولة فأنه لا يكاد يعقل أن هنـــاك رجلاً ينوي تأسيس دولة على اساس من الالحاد لأن الدين يدعم الدولة والالحـاد يهدمها . واذا فرضنا أن القرامطة أرادوا الهدم واعتمدوا على الالحاد فكيف نعلل تأسيس دار الحكمة بالقاهرة ومؤسسها خليفة ، خلافته قائمة على هـذا الدين الذي يريد أن يهدمه ؟

اننا نعقل أن يدعو الى الالحاد رجـــل فارسي تدعوه وطنيته مثلاً الى الثورة على العرب والاسلام معاً فيريد هدم الخلافة ونشر الفوضى الدينية حتى تجـــد الفرس مجالاً لاستعادة قوميتها ، وهذا ما نظن انه قصد اليه عبد الله بن ميمون القداح الذى ظهر بفرقته ايام العباسين . ونعقـــل ايضاً أن تعمل دولة الفاطميين في مصر على هدم دولـــة العباسين في بغداد ولكن بشرط ألا تهدم الاسس القائمة هي نفسها عليه وهو الاسلام

وموضوع الفرق الاسلاميـة لا يزال غامضاً لم يمحص للان . ولذلك سنقتنع فيما يلي برواية الواقع دون أن نبحث عن العلل والبواعث

فالواقع انه ظهرت بمصر وسوريا والعراق فرق عديدة كافحت سراً وجهراً بالسيف وبغـــير السيف لكي ترفع سلطان الحرية الفكرية وتهدم أساس الدين . ومعظم هـذه الفرق كانت تتستر بمذاهب الشيعة للحظوة التي ينالها على

الدوام علي بن ابي طالب في قلوب المسلمين . وكـان عبد الله بن ميمون القداح أول من دعا الى تأسيس فرقة لهدم الدين، وكان ابوه ملحداً يحارب الاسلام سراً بتزييف الاحاديث . ولهذه الغاية انشأ عبد الله فرقة الباطنية وأدمج في مذهبهـا شيئاً كثيراً من عقائد الفرس المانوية : « النور فاعل الخيرات والمنافع ، والظلام فاعل الشرور والمضار »

قال دوزي عن ابن ميمون انه أراد : « أن يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحـدة وان يجمع في جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لأذلال الشعب وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وان يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها . ولم ينشد ابن ميمون انصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص وانما بين المانويين والوثنيين والمتفلسفة ، ولم يكن يعتمد إلا عـلى الطائفة الاخيرة ، واليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وخفي عقيدته وهي ان الائمـة والاديان والاخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية ، وان باقي البشر – أو الحمر كما يسميهم – ليسوا أهلاً لفهم هـذه التعاليم

«غير انه تحقيقاً لغايته لم يكن يمقت مؤازرتهم بل كان يلتمسها . وكان دعاته الذين تعلموا كيف يخفون عواطفهم الخاصة يظهرون في اثواب مختلفة ويحادثون كل طبقـة

باللغة التي تروقها أو يثيرون استطلاعهم بالالغاز والاحاديث الخفية ، ويتحجبون أمام المخلصين بقناع الزهد والفضيلة ويتظاهرون أمام الصوفية أنهم صوفية فيكشفون عما خفي من معاني الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها

« وأسفرت هذه النظم عن نتيجة مدهشة هي أن جمهوراً عظيماً من الناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم »

وكان عبد الله بن ميمون يرمي الى هدم الدين بالسر والتستر . ولكن فرقة القرامطة التي تكونت من اتباعه عمدت الى الجهر والعلانية فألفت عصابة قوية عاثت في الدولة العباسية واستباح أعضاؤها السفك والنهب واستحلوا الاموال والأعراض واقتحموا البيت الحرام ونزعوا كسوته واقتلعوا الحجر الاسود ، وأسسوا دولة في البحرين عاشت زمناً غير طويل لأن العباسيين تغلبوا عليها واستظهروا عليهم بالدين .

وانتشر دعاة ابن ميمون في جميع انحاء العالم الاسلامي حتى يقال أن عبد الله مؤسس الدولة الفاطمية في مصر ينتمي في النسب اليه . واذا صح هذا النسب فلا يستبعد من الحاكم بأمر الله ان يؤسس « دار الحكمة » يعلم فيها الناس الالحاد ، وهو النسب الذهني بينه وبين ابن ميمون

ولكن العقبة لا تزال ماثلة . فأن الدولة التي تنشر الالحاد بين الناس هي دولة « فاطمية » شيعية اساسها

اكبار شأن اسرة النبي . فكيف يتفق القول بأن الانبيـاء لم ينزل عليهم وحي ولا هم يمتازون من الناس بصلة خاصة بالله والقول بحق الفاطميين في الحكم لانهم من نسل النبي ؟

ولكن الواقع ان دار الحكمة كانت غايتها هدم سلطة الدين وكان مؤسسها الحاكم بأمر الله . فهل نعزو تأسيسها الى عرق الهوس الذي كان دائم النبض فيه والهيجان عليه ونقول انه طما به دفعة واحدة واجبره على ان يبوح بما اضمره سائر الخلفاء الفاطميين ؟

كانت المراتب التي يتنقل فيها الطالب في دار الحكمة تسعاً . وكان الطلبة ينقسمون قسمين : العلماء والجهـلاء . والعلماء هم الدعاة المعلمون . فكان الطالب اول ما يدخـل دار الحكمة يناقش في المسائل الدينيـة وفي تفسير القرآن ويعلن له حينئذ أن اسرار الدين أعوص من أن يفهمهـا جميع الناس، وأن الدعاة هم الذين اختصوا بذلك ووقفوا على هذه الاسرار. ثم تؤخذ عليه العهـود بألا يفشي شيئاً يسمعه منهم . فاذا انتهى من هذه المرتبة الاولى دخـل في المرتبة الثانية وفيها يعلم الطالب ان جميع التفاسير الذائعـة بين الناس باطلة وأن التفسير الحق هو الذي يقول بـه الأئمة الذين تلقوا حقائقها من الله . وفي الثالثـة يعرف الطالب أن هؤلاء الأئمة هم أئمة الاسماعيلية وهي طائفـة من فرقة الباطنية التي أسسها عبد الله بن ميمون القداح . وفي الرابعة يعرف أن الانبياء سبعة هم : آدم ونوح وابراهيم

وموسى والمسيح ومحمد (نبي الاسلام) ثم محمد بن اسماعيل الامام. وفي الخامسة يصرح للطالب بالغاية الحقيقية من هذه التعاليم وهي أن يترك الدين الاسلامي. وفي السادسة يتوسع الطالب فيقال له إن جميع الاديان كاذبة وإن الفروض التي أمرت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة اريد بها اخضاع الناس. وأن جميع الاديان يجب ان تخضع لشريعة العقل والعلم، ويعتمدون هنا على اقوال ارسطوطاليس وافلاطون وغيرهما. وفي السابعة يلقن الطالب تعاليم المانوية التي تهدم وحدانية الله وهي أقوى أساس للاسلام. وفي الثامنة تنقض كل صفات الالوهية والنبوة ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رجال الدولة والعمل والسياسة الذين ينشؤون الحكومات ويؤسسون النظم المدنية للناس. وفي المرتبة التاسعة والاخيرة يباح للطالب بأن كل الاديان المنزلة حديث خرافة وأن للرجل المستنير الحق في أن يرفضها جميعاً. وأن الفلسفة تقوم مقام الدين. وأن الانبياء انما كانوا اناساً مستنيرين تفقهوا في الفلسفة

وقد عاشت الدولة الفاطمية من سنة ٩٦٩ الى سنة ١١٧١ ميلادية ماتت في نهايتها هذه النزعة الالحادية لأن دار الحكمة لم تعش بعد هذه الدولة. وعادت مصر سنية تخطب خطباؤها في المساجد للخلفاء العباسيين

بعد ذلك نرى أن مركز الدعاية للتفكير الحر قد انتقل من مصر الى فارس حين نجد الحسن بن الصباح

صديق عمر الخيام يبث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة . ونرى ان « نظام الملك » وزير العباسيين في بغداد وصديق الحسن القديم يؤسس المدرسة النظامية لكي يقاوم هذه التعاليم ويؤيد السنة التي هي عمدة الخلافة العباسية ؛ وقد زار الحسن دار الحكمة في مصر واتصل باساتذتها وتفقه عليهم. وتعاليمه خليط من المانوية والفلسفة الاغريقية، وكانت فرقته تدعى الاسماعيلية أو الباطنية، وكان يعمد الى هدم الخلافة بقتل ذوي السلطان الذين يؤيدونها ويعملون لرفع شأنها . وعاشت فرقته نحو ١٥٠ سنة وهي اكبر معول لهدم الاسلام والخلافة العباسية

ولو أردنا التلخيص لقلنا إن حركة الالحاد في الاسلام نشأت في فارس ، وربما كانت غايتها وطنية في الأصل بهدم الخلافة وملك العرب . والحركة مصبوغة على الدوام بالمانوية وهي ديانة الفرس المنقرضة واتخذتها الدولة الفاطمية في مصر سلاحاً لمحاربة الدولة العباسية في بغداد . ووقفت الحركة عن النمو والانتشار لغلو بعض دعاتها في الحرية حتى صارت اباحية ولالتجاء بعضهم مثل القرامطة الى وسائل العنف والاعتداء على الناس حتى أجمعوا على مقاتلتهم وابادتهم . وقد يتساءل القارىء الآن : هل كانت هذه الفرق مخلصة في دعواها الالحادية أم كانت ترمي الى غاية سياسية فقط ؟ فالجواب ان درسها فلاسفة الاغريق وديانات الفرس والمسيحيين يثبت اخلاصها . اما انها كانت

تنحو الى تاسيس الدولة فليس في ذلك ما يزري باخلاص اعضائها. فقد كانت السياسة غاية من غايات المذهب الديني في دار الحكمة. وكذلك لا يعيب الحركة انحطاط القرامطة ونزوعهم الى الصعلكة وانتهاب الناس فان في كل حركة عمرانية نزعات تختلف رفعة وانحطاطاً. فالحركة الصوفية مثلاً تضم بين اعضائها العلماء والأفذاذ أمثال الغزالي كما تضم بين صفوفها الدراويش المتوحشين أصحاب المرقعات اكلة النار والمشعوذين بالسكاكين

اضطهاد الفلاسفة

قال ابن سعيد في ما رواه عن المقري يصف مكان العالم في الاندلس: « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فأن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة . فانه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه . فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو احرقوه قبل ان يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقرباً للعامة . وكثيراً ما يأمر ملوكهم بأحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن ابي عامر لقلوبهم أول نهوضه . وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن »

واحراق الكتب بالنار كان من الامور الفاشية المبتذلة في الاندلس. حتى كتب الغزالي نفسها لم تنج من الاحراق عندما بلغت الاندلس لأنها لم تكن توافق المذاهب الشائعة

في تلك البلاد . وكان ابن حزم أحـــد علماء الأندلس وأكثرهم تأليفاً أخذ عليه الفقهاء بعض المآخـــذ وأبلغوا المعتضد بن عباد أمير اشبيلية ما ينقمونه عليه فجمع كتبه وأحرقها . وفي ذلك يقول ابن حزم :

دعوني من احراق رق وكاغـــد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطـــاس اذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركـــائبي
وينزل ان أنزل ويدفن في قبري

ومات ابن حزم سنة ٤٥٦ هـ . ويقال انه ألف نحو ٤٠٠ مجلد لا نعرف الان منها سوى واحد أو اثنين وذهب الباقي طعمة للنار

وليس يتسع المقام لسرد أخبار العلماء الذين اضطهدوا لحريتهم الفكرية، وانما نقنع باثنين أحـــدهما ابن رشد في الاندلس بقرطبة والثاني السهروردي في سوريا بحلب

كان ابن رشد فيلسوفاً جدد فلسفة ارسطوطاليس وقال بأزلية المادة وأنكر خلود النفس . وألف كتاب « تهافت التهافت » يرد فيه على كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » ويرفع شأن الفلسفة ويبين مزاياها بعـــد أن قضى عليها الغزالي في الشرق قضاء لم تبعث منه للآن . فكان لا بدّ من أن ينتبه الفقهاء اليـــه وأبلغوا أمـــره للمنصور « ثم ان

المنصور ... نقم على أبي الوليد بن رشد وأمره بأن يقيم في اليسانه وهي بلدة قريبة من قرطبة وكانت أولا لليهود والا يخرج منها. ونقم أيضاً على جماعة أخرى من الفضلاء الاعيان وأمر بأن يكونوا في مواضع أخر، وأظهر انه فعل ذلك بسبب ما يدعى عليهم انهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الاوائل. وهؤلاء الجماعة هم أبو الوليد ابن رشد وأبو جعفر الذهبي... وبقوا مدة . ثم ان جماعة من الاعيان بأشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غير ما نسب اليه فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة »

وماذا قال ابن رشد لكي ينجو من الفقهاء ؟ قال ان الحقيقة مزدوجة فاننا يمكننا ان ننظر نظراً دينياً فنؤمن بالبعث والخلق وخلود النفس وسائر ما يقوله الدين ونصدق كل ذلك وترتاح اليه ضمائرنا . ويمكننا ايضاً ان ننظر نظراً علمياً فلا نصدق الا ما يثبت أمام حواسنا وعقلنا

وهذا الكلام واضح الخلل لأنه لا يقل عن قولنا بأن خمسة وخمسة عشرة في الصباح فاذا كان الظهر كانت عشرين . والغريب ان هذا التمحل الذي اراد منه ابن رشد ان يحقن دمه عبر اسبانيا الى فرنسا فصار القول بازدواج الحقيقة فلسفه تدرس لطلبة الدين في باريس الى ان جحدها البابا يوحنا الحادي والعشرون

ومات ابن رشد بمراكش كما اشتهى حتف أنفه سنة ١١٩٨ وهو شيخ في نحو السبعين

أما السهروردي فحياته مأساة مختصرة . قتل في السادسة والثلاثين ومع ذلك نجهل الجريمة التي قتل من أجلها. وكل مـــا نعرفه ان الفقهاء في حلب شكوه الى صلاح الدين واتهموه بالزندقة فأمر صلاح الدين بقتله . واليك ما يقوله عنه أبن أبي أصيبعة : « كان أوحد في العلوم الحكمية بارعاً في الأصول الفقهية مفرط الذكاء جيد الفطرة فصيح العبارة لم يناظر أحداً الا بذه ولم يباحث محصلا الا أربى عليه وكان علمه أكثر مـــن عقله ... » وكان الشيخ فخر الدين يقول : « ما اذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد أحداً مثله في زماني، الا اني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه ان يكون ذلك سبباً لتلفه ». قال : فلما فارقنا شهاب الدين السهروردي من الشرق وتوجه الى الشام أتى الى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره أحد . فكثر تشنيعهم عليه . فاستحضره السلطان الملك الظـــاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايـــوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينه وبينهم من المباحث والكلام . فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيناً عنـــده مختصاً به، فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين

وقالوا : « ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر

وكذلك ان اطلق فانه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه : ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل أن يطلق ولا يبقى بوجه من الوجوه . ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وأيقن أنه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار أن يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى ان يلقى الله تعالى . ففعل به ذلك وكان في أواخر سنه ٥٨٦ هـ بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة »

* * *

لما نفي ابن رشد الى اليسانة اذاع المنصور خليفة الاندلس في ذلك الوقت هذا المنشور التالي بين سكان الاندلس ينهاهم فيه عن الاشتغال بالفلسفة . وهذا نص المنشور بحروفه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الاوهام . وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الافهام . حيث لا داعي يدعو الى الحي القيوم ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم . فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق ، مسودة المعاني والاوراق . بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين . يؤمنون أن العقل ميزانها والحق برهانها . وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً

ويسيرون فيها شواكل وطرقاً،ذلكم بأن الله خلقهم للنار .
وبعمل أهل النار يعملون . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم
القيامة . ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . الا ساء
ما يزرون . ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين
انس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم
وما يشعرون . يوحي بعضهم الى بعض خــوف القول
غروراً .ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون .
فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب . وأبعد عن الرجعة
الى الله والمآب . لأن الكتابي يجتهد في ذلال ويجد في
كلال . وهــؤلاء جهدهم التعطيل ؛ وقصاراهم التمويه
والتخييل . دبت عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان الى
أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قد عنا
لهم على شدة حروبهم،وعفا عنهم سنين على كثرة ذنوبهم.
وما أملي لهم الا ليزدادوا اثماً . وما أمهلوا الا ليأخذهم
الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما . وما زلنا
وصل الله كرامتكم نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم
على بصيرة الى ما يقربهم الى الله سبحانه ويدنيهم . فلما
أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم وقف لبعضهم
على كتب مسطورة في الضلال،موجبة أخذ كتاب صاحبها
بالشمال . ظاهرهــا موشح بكتاب الله . وباطنها مصرح
بالاعراض عن الله . ليس منهــا الايمان بالظلم : وجيء
منها بالحرب الزبون في صورة السلم . مزلة للأقدام .

وهم يدب في باطن الاسلام . أسياف أهل الصليب دونها مفلولة . وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة . فانهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم . ويخالفونها ببساطنهم وغيهم وبهتانهم . فلما وقفنا منهم على ما هم قذى في جفن الدين . ونقطة سوداء في صفحة النور المبين. نبذناهم في الله نبذ النواة . وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم في الله كما انا نحب المؤمنين في الله . وقلنا اللهم ان دينك هو الحق اليقين وعبادك هم الموصوفون بالمتقين . وهؤلاء صدفوا عن آياتك وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك . فباعد أسفارهم . وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم . ولم يكن بينهم الا قليل وبين الالجام بالسيف في مجال السنتهم . والايقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم . ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون. ثم طردوا عن رحمة الله ولو ردوا لعادوا بما نهوا عنه وانهم لكاذبون . فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الايمان حذركم من السموم السارية في الابدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه . واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه وما به . ومتى عثر منهم على مجد في غلوائه . غم عن سبيل استقامته واهتدائه . فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف . ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون . أولئك الذين حبطت أعمالهم. أولئك الذين

ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ويكتب في صحائف الابرار تضافركم على الحق واجتماعكم. انه لمنعم كريم » اه

وقضت الاقدار أن ينهزم ابن رشد وأن تنهزم معه الفلسفة في الاندلس . ولكن لنا أن نتساءل : هل كان ينقرض المسلمون من الاندلس لو أن الناس كانوا أحراراً في تفكيرهم يتطورون ولا يجمدون ؟

قصة القهوة

منذ سنين قليلة قررت حكومة الولايات المتحدة منع الخمور وبيعها وشراءها وتناولها ؛ كذلك منعت الحكومة المصرية بيع الكوكايين وعاقبت من يحمله لكي يتناوله بنفسه او لكي يبيعه لغيره . وفي مصر لا يجوز بيع العقاقير الطبية وتحضيرها الا للصيادلة . ولكن هذا التحريم يحور على محور مدني اساسه في كل هذه الحالات التي ذكرناها إن هذه الاشياء سامة فيجب الا تباع او تباع فقط برخصة خاصة . فالنظر مدني وقاعدته التي يرتكز عليها مصلحة الجماعة المدنية الدنيوية بحيث اذا ثبت في اي وقت ان هذه المصلحة لا تتعارض وتناول هذه المحرمات يسقط تحريمها . ومعنى كلامنا ان هذه الحكومات لا تحرم تناول هذه الاشياء كما يحرم الدين الموسوي على اليهود تناول الخنزير او كما يحرم دين الهندوكيين تناول لحم البقر . لأن هذين التحريمين الآخرين يرجعان الى سلطة آلهية تأمر فتجزم في

الأمر ولا تعلل . وعلى المؤمنين طاعتها بحيث اذا خالفوها تعرضوا للهرطقة أو الزندقة . ثم في الحالات الاولى يمكن تبديل الشرعة او الغاؤها لانها شريعة مدنية قائمة على ارادة الامة، وهي اشبه بعقد اجتماعي في موضوع بعينـــه، اما في حالة لحم الخنزير او لحم البقر فان الشريعة لايمكن مسها بأي تنقيح او تبديل

وفيما يلي سنروي محاولات الفقهاء في مكة والمدينـــة والقاهرة في تحريم القهوة تحريماً يستند الى الدين كما حرم لحم الخنزير؛ وروايتنا منقولة عن كتاب لعبد القادر محمد الانصاري من أهل القرن العاشر للهجرة . وسنترك المؤلف يروي القصة بلسانه، وكل مهمتنا اختصار الكتاب في جملة صفحات . فاننا سنحذف ولكننا لن ننقح . قال المؤلف :

« اعلم ان القهوة هي الشراب المتخذ من قشر البن او منه مع حبه المجحم اي المقلي . فمن قائل بحلها يرى انها الشراب الطهور المبارك على اربابها الموجبة للنشاط والاعانة على ذكر الله تعالى وفعل العبادة لطلابها . ومن قائل بحرمتها مفرط في ذمها والتشنيع على شرابها . وكثر فيهـــا من الجانبين التصانيف والفتاوى . وبالغ القائل بحرمتها فادعى أنها من الخمر وقاسها به وساوى . وبعضهم نسب اليهـــا الاضرار بالعقل والبدن الى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية الى الجدال والفتن وحصـول ما أدى الى منازعات ومحن بمكة والقاهرة والمنع من بيعها وكسر اوانيها الطاهرة

بل الى تعزير باعتها بالضرب وغيره من غير حجة ظاهرة والى تأديبهم بضياع مالهم واحراق القشرة المتخذة منه في كرات متواترة . وبالغ الذام لها ان شاربها يحشر يوم القيامة ووجهه اسود من قعور اوانيها . وكثر التقاطع والتدابر بين الفريقين والذم لمن يعانيها

« واما مبدأها فقال الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ما لفظه : ان الاخبار قد وردت علينا بمصر اوائل هـذا القرن (القرن العاشر للهجرة) بأنه قد شاع في اليمن شراب يقال له القهوة تستعمله المشايخ الصوفية وغيرهم للاستعانة بـه على السهر في الافكار التي يعلمونها على طريقتهم المشهورة. ثم بلغنا بعد ذلك بمدة ان ظهورها وانتشارها فيه كان على يد ابي عبد الله المعروف بالذبحاني : وسمعنا انـه كان متولياً بوظيفة تصحيح الفتاوى في عدن . وهي وظيفة كانت بها اذ ذاك تعرض على صاحبها الفتاوى فيقر ما يراه صواباً ويكتب تحتها « صحيح » بخطه وينبه على ما يرى اصلاحه . وسبب اظهاره لها ماسمعناه ايضاً انه كان عرض له امر اقتضى الخروج من عدن الى بر العجم فأقام به مدة فوجد اهله يستعملون القهوة ولا يعلم لها خاصية ، ثم عرض له حين رجع الى عدن مرض فتذكرها فشربهـا فنفعته فيه فوجد فيها من الخواص انها تذهب النعـاس والكسل وتورث البدن خفة ونشاطـاً : فلما سلك طريق التصوف صار هو وغيره من الصوفية بعدن يستعينون بشربها

على ما ذكرناه ثم تتابع الناس بغدن والفقهاء والعوام على شربها للاستعانة بها على مطالعة العلم وغيره من الحرف والصناعات ولم تزل في انتشار

« واما اول ظهورها بمصر فقال ابن عبد الغفار انها ظهرت في حارة الجامع الازهر في العشر الاول من هذا القرن (العاشر) وكانت تشرب في نفس الجامع برواق اليمن يشربها فيه اليمانيون ومن يسكن في رواقهم من اهل الحرمين. وكان المستعمل لها الفقراء المشتغلون في الرواتب من الاذكار والمديح على طريقتهم: وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة يضعونها في ماجور كبير من الفخار الاحمر ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الايمن فالايمن مع ذكرهم المعتاد عليه غالباً وهو : لا اله الا الله الملك الحق المبين. وكان يشربها معهم موافقة لهم من يحضر الرواتب من العوام وغيرهم. قال : وكنا ممن يحضر معهم وشربناها فوجدناها تذهب الكسل والنعاس كما قالوا بحيث انها كانت تسهرنا معهم ليالي لا نحصيها الى ان نصل الصبح مع الجماعة من غير تكلف. وكان يشربها معهم من اهل الجامع وغيرهم خلق لا يحصى: ولم يزل الحال على ذلك وشربت كثيراً في حارة الجامع الازهر وبيعت بها جهراً في عدة مواضع ولم يتعرض احد ولا انكر شربها مع اشتهارها بمكة وشربها في نفس المسجد الحرام وغيره بحيث لا يعمل ذكر او مولد الا بحضورها . ثم حدث

الانكار عليها بمكة الشريفة في سنة سبع عشرة وتسعمائة وكان القائم في ذلك رجلين أعجميين اخوين كانا مشهورين بالحكمة وكان لهما فضيلة في المنطق والكلام والطب ويدعيان مرتبة في الفقه ؛ وهما الرجلان اللذان رحلا الى مصر في أواخر دولة الغوري وأقاما بها حتى قدم اليها السلطان المظفر سليم شاه فقتلهما لما كانا يرميان به مما الله أعلم بحقيقته . وأعانهما على القيام في امرهما شمس الدين الخطيب نقيب قاضي القضاة سري الدين بن الشحنة واناس آخرون ، فأغرى شمس الدين الخطيب الامير خاير بك معمر باش مكة ومحتسبها اذ ذاك على إبطالها من الاسواق ومنع الناس من شربها وقرروا أنها موصوفة بتلك الصفات القبيحة ، ورغبة في ذلك جدوا لحمله على أن يعقد مجلساً عنده ، وانفصلوا منه على القول بحرمتها وكتبوا بذلك محضراً أنشأه لهم شمس الدين الخطيب وأرسلوه الى مصر وأرسلوا معه سؤالاً من انشاء الحكيمين والخطيب وطلبوا مرسوماً سلطانياً لمنعها بمكة . ولما انصرفوا من عقد المجلس شهر الامير خاير بك النداء بمنع شربها وشدد في ذلك حتى أنه عزر جماعة من باعتها وكبس مواضعهم واخرج ما وجده فيها من قشر البن واحرقه في وسط المبيع ، فبطلت حينئذ من السوق وكان الناس يشربونها في بيوتهم اتقاء شره لأنه بلغه عن شخص أنه شربها فعزره وطاف به في الاسواق

« ثم بعد ذلك ورد المرسوم السلطاني ولكن لا على

وفق غرضهم ، فتجاسر الناس على شربها ولا سيما وقد بلغهم أنها لا تمنع في مصر التي هي بلدة السلطان ولم ينكرها أحد من علمائها ، وفتر خاير بك عن التسلط على الناس بسببها واستمر الحال على ذلك . وقال بعض اهل المجون :

قهوة البن حرمت فاحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبوا وعربدوا وانزلوا في قفا الخطيب

« وفي سنة تسع وثلاثين وتسعمائة (٩٣٩ هـ) رفع للشيخ العلامة واعظ العصر شهاب الدين احمد السنباطي سؤال هذه صورته : ما قولكم رضي الله عنكم في شراب يسمونه القهوة يجتمع عليه الجماعة ليشربوه ويزعمون انه مباح مع انه يترتب عليه مفاسد كثيرة ، فهل ذلك جائز أم حرام ؟ فأجاب بحرمتها وانها مسكرة

« وفي سنة ٩٤١ تعرضوا للشيخ في مجلس وعظه بذكر القهوة فأفتى بحرمتها وصمم على ذلك في مجالسه بالجامع الازهر ؛ فتعصب جماعة من القوم لما سمعوا منه ذلك وخرجوا الى بيوتها من تلقاء انفسهم بغير امر حاكم بل لمجرد الحفلات العامية وكسروا أوانيها وضربوا جماعة ممن كانوا هناك ، فقام بسبب ذلك فتنة وتعصب ممن يقول بالحل والحرمة ، واحتاج الامراء الى الاستفتاء ايضاً ، واتصل « الخبر » بقاضي مصر الشيخ محمد بن الياس الحنفي فسأل عن حكمها جماعة من علماء القاهرة المفتين

بها واعتمد على إفتاء من قال بحلها من العلماء المعتبرين ثم استظهر بعد ذلك فأمر بطبخها في منزله وسقى منها جماعات بحضرته وجلس يتحدث معهم ليختبر حالهم فلم يرَ فيهم تغيراً ولا شيئاً منكراً فاقرها على حالها

« وفي سنة (٩٤٥) بينما جماعة في بيوت القهوة يستعملونها في شهر رمضان بعد العشاء وافاهم صاحب العسس اما من تلقاء نفسه واما بأمر أوحي اليه واخرجهم منها بهيئة شنيعة بعضهم بالحديد وبعضهم مربوط بالحبال فباتوا في منزل السوبا شاه ، ثم أطلقوا صباحاً بعد أن ضرب كل واحد منهم سبع عشرة ضربة . ثم لم يلبثوا ان ظهر الحق وعاد الحال الى ما كان عليه أولاً بعد يومين أو نحوهما

« وورد في سنة (٩٥٠) في موسم الحاج صحبة الركب الشامي الى مكة حكم سلطاني بمنع القهوة ، وإبطالها وإلزام باعتها بمنع التسبب فيها وابطالها محالها ... ثم تعددت بيوتها على غير مبالاة من الولاة وشربت في تلك السنة جهاراً . وكذلك منعت بالقاهرة مراراً فلم تطل المدة وعلا منارها ولم يزل أمرها ظاهراً وتعداد بيوتها وافياً مشتهراً ، ويشربها العلماء والصلحاء وأماثل الفقهاء ويقر عليها أهل الافتاء والتدريس ويواظب على شربها من وصف بالفضل .. والذي أقوله ان الحق الذي لا مراء فيه ولا شبهة تعارضه وتنافيه أنها في حد ذاتها حلال وبها نشاط على العبادة ولا

يشوبه نقص أو اختلال »

* * *

وحسب القارىء هذه المختارات من الكتاب وكلها تدل على ان معظم الفقهـاء والحكام حاولوا الى منتصف القرن العاشر الهجري تحريمها في مصر والحجاز مستندين في ذلك الى الدين. ولكن بيوت القهوة « تعددت على غير مبالاة من الولاة » وأبى الجمهور ان يتقيـد بفتاوى الفقهاء أو تنطع الحكام، واحتفظ بحريته في تناول الطعام والشراب : وحرية الاكل من الحريات التي قد نستهين بها ولكن اذا اعتبرنا المبدأ نجدها انها ليست دون الحريات الاخرى قدراً لانها تستند في الواقع الى حرية الفكر

الجمهور والاضطهاد

موضوع هذا الكتاب هو اضطهاد الحكومات للناس . ولكن قد يكون الجمهور هو الباعث للحكومة على الاضطهاد كما رأينا في الاندلس . وقد يعمد الجمهور ايضاً الى ان يأخذ الامر بيده مباشرة ويضطهد الخارجين على عاداته في الدين أو غير الدين في حين تكون الحكومات متسامحة راضية بوجود هؤلاء الخارجين

فالبيض في الولايات المتحدة يضطهدون السود ويقتلونهم ولا تقوى حكومات الولايات على حماية السود منهم ؛ وكان الرومانيون يضطهدون اليهود كلما سنحت فرصة لانتهاب اموالهم . وكان الاتراك الى وقت قريب يختصرون عدد الارمن بالسيف ويمنعونهم من التزايد المفرط . كذلك سمعنا عن مشاجرات كانت تقع بين الهندوكيين والمسلمين في الهند وكثيراً ما كانت تنتهي بقتل عدد كبير من الطرفين

وهذا الاضطهاد لا تمكن معالجته بالقوانين فأنه قائم

على درجة الثقافة الفاشية في الامــة ومقدار ما فيها من اعتراض وعصبياب قديمة ، لأن القوانين تعجز عن تأديب الجمهور اذا لم يكن من ورائها رأي عام يدعمها ويؤيدها : فاذا كان هــذا الرأي العام يروج التعصب ويدعو الى الاضطهاد فان الحكومة بكل ما فيها من نيات حسنة لا تستطيع الاصلاح الا بنشر الثقافة وقشع غيوم الخرافات من رؤوس الجمهور . وهذه طريقة بطيئة ليست فيهـا سرعة الامر والنهي التي تتسم بها القوانين

وماذا يمكنك مثلاً ان تقــول في قصة الطبيب المسلم الذي يرفض ان يعالج غير المسلمين ؟ ليس في مستطاعك ان تتهم الاسلام بتعصبه لأن هذا التعصب قد يرجع الى مزاجه الشخصي ، اذ لم يقل الاسلام قط ان العلم حرام على غير المسلمين . فقد ذكر « طبقات الاطباء » عن رضى الدين الرجبي الطبيب ايام الملك العادل انه « لم يقرىء في سائر عمره عن اهل الذمة سوى اثنين لا غير .. بعد ان أثقلا عليه بكل طريق وتشفعا عنده بجهاد لا يمكن ردها ·

وكذلك لا يمكننا ان نخوض في موضوع كراهة الامم المختلفة لليهود . لان هذه الكراهة قائمة على عصبيات واغراض قديمة تحتاج الى تربية طويلة لقشعها عن العقول

ولكن يجب ان نذكر ان الحكومات مؤلفة من الجماهير . وقد تكون من صفوة الجماهير ولكنها تبقى مع ذلك متأثرة بروحها تحسب لها وتقدر عواقب غضبها وتتملقها باضطهاد

من ترغب في اضطهاده . وقــد اضطهد « دريفوس »
جديثاً في فرنسا بفرط ضغط الجمهور الذي يكرّه اليهود
للحكومة . وكانت حكومات الاندلس تضطهد اليهــود
وتضطهد العلماء تملقاً للجمهور .

وبهذه المناسبة يحسن بنا ان نذكر المذبحة التي أصابت
نحو اربعة الاف يهودي في اسبانيا سنة ٣٥٩ هـ على أيدي
جمهور جاهل استفزته العاطفة الدينية . فقد كان باديس
امير غرناطة قد استوزر يهودياً يدعى ابن نغزالة . فألف
ابو اسحق الفقيه قصيدة حض فيها قبيلة صنهاجة على اليهود
واغراهم بقتلهم . قــال نفح الطيب : « وهي قصيدة
طويلة » . فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة
عظيمة وفيهم الوزير المذكور (ابن نغزالة) فأراح الله
البلاد والعباد ببركة هــذا الشيخ (ابو اسحق الفقيه)
الذي نور الحق على كلامه باد »

ويقول ابو اسحق الفقيه هذا في قصيدته المشؤومة :

ألا قــل لصنهاجة اجمعين   بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي ثقــة مشفق   يعد النصيحة زلفى ودين
لقــد ذل سيدكم ذلــة   تقر بهــا أعين الشامتين
تخــير كاتبــه كافراً   ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا   وتاهوا وكانوا من الارذلين

ويقول في الاغراء بقتل الوزير وطائفة اليهود :

فبادر الى ذبحه قربــة   وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه   فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عراهم وخذ مالهم   فأنت أحق بمـا يجمعون

فهذا مثال من تعصب الجماهير وسفالة أديب انتهت بمأساة فظيعة . وقد كان جمهور الاندلس أغبى جمهور في العالم الاسلامي كله ، قد ركبه الفقهاء واستغلوه لمصالحهم مع ان حكام الاندلس وامراءه كانوا على غاية بعيدة من التسامح : وذلك في حـين ان الجماهير المسلمة في الشرق كانت مسالمة موادعة . وحياة المعري وخدها تكفي برهاناً على ذلك : فان هذا الاديب العظيم عاش الى الشيخوخة الهنية في بلدتــه (المعرة) ولم يلاق من الجمهور أو الحكومات المسيطرة عنتاً مع ما كان يمكن ان يؤاخذ عليه ويكون كافياً للحكم عليه بالقتل . فقد شك في الدين وأعلن شكوكه في ابيات عديدة تنوقلت عنه . وشاع عنه الكفر والالحاد ، ومع ذلك لم ينله أذى . ويحسن بنا هنا ان ننقل شيئاً من اقواله لكي يعارضها القارىء بمقتلة اليهود في اسبانيا . فالدين الذي كان يخضــع لسلطانه ذلك الاديب ابو اسحق الفقيــه هو نفسه الدين الذي كان يخضع لسلطانه ابو العلاء المعري ، وانما اختلفت الثمرة لاختلاف التربة

فما يروى عن المعري ويؤاخذ عليه قوله :

قلتم لـنا صانع قديم   قلنا صدقتم كذا نقول

ثم زعمتم بــلا زمان ولا مكان الا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

وقال عنــه ياقوت : «كان متهماً في دينه يرى رأي البراهمــة . لا يرى افساد الصورة ولا يأكل لحماً ولا يؤمن بالرسل ولا بالبعث والنشور »

ومما يؤاخذ عليه المعري قوله يخاطب الله :

أنهيت عن قتل النفوس تعمداً
وبعثت تأخذهــا مع الملكين
وزعمت أن لهــا معاداً ثانياً
ما كان أغناهــا عن الحالين

وايضاً قوله :

اذا ما ذكرنا آدماً وفعــاله
وتزويجه ابنيه فبنتيــه في الخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر
وأن جميع الخلق من عنصر الزنا

وايضاً قوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ومجــوس حارت واليهود مضللة
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر ديّن لا عقــل له

فكل هذه اقوال صريحة في الكفر لم يتحرك لها الجمهور او السلطان الا حركة ضعيفة جداً نرى بعضها في بيتين من قصيدة القاضي ابي جعفر الزوزني يقول فيها :

كلب عوى بمعرة النعمان   لما خلا عن ربقة الايمان
امعرة النعمان ما انجبت اذ   اخرجت منك معرة العميان

وقد مات المعري سنة ٤٤٩ هـ

فجمهـــور الشرق كان قد تربى ونشأ على التسامح وكان فقهاؤه قد تثقفوا بعض الشيء بثقافة الفلاسفة والادباء فلم يجدوا حرجاً في اقوال المعري يستوجب العقوبة الصارمة. في حين ان جمهور الاندلس كان مطية الفقهاء يوجهونه الى اية ناحية يريدونها . والشرق والغرب كانا يؤمنان في ذلك الوقت بدين واحد هو الاسلام

ويجب ألا ننسى ايضاً ان السهروردي قتل بأمر صلاح الدين بعد وفاة المعري بنحو ١٤٠ سنة . ولعله لم يقـــل نصف ما قاله المعري من التنديد بالاديان والحمل عليها . ولكن صلاح الدين كان رجلاً كردياً غير مثقف فاستطاع الفقهاء ان يؤثروا فيه

وخلاصة هذا الفصل :

١ — ان تهور الجماهير وتعصبها لا يمكن ان يعزى الى الدين . لأن الدين يحتاج الى ثقافة لا تصل اليهـــا الجماهير . وهـــذه الجماهير تتأثر باعتبارات عديدة الدين واحد منها فقط . فالفرنسيون مثلاً يكرهون اليهود الآن

لاعتبارات وطنية تجارية

٢ ــ ان التعصب يرجع الى القابض على السلطة الدينية وفهمه للدين يختلف باختلاف ما هو حاصل عليه من الثقافة. فالدين المسيحي الذي تؤمن به اوروبا الآن والذي يقول المؤمنــون به بالتسامح هو نفسه الذي كان يقول المؤمنون به بعدالة احكام محكمة التفتيش في القرون الوسطى. والاسلام الذي تسامح في وجود المعري هو نفسه الذي توسل به الفقهاء لقتل السهروردي

الجزء الثانى
حرية الفكر فى العصور الحديثه

ارهاصات النهضة الاوروبية

الارهاص لفظة شرعية معناها تلك الخوارق أو الكرامات التي يأتيها النبي قبل ان تبلغ نبوته سن الرشد أي قبل أن يستتم حقوق الدعوة الى دينه الجـديد . ولكل حركة اجتماعية في العالم ارهاصات تتقدمها وتـدل عليها وتكاد تنطق بها . فللثورة الفرنسية الكبرى ارهاصات واضحة في صيحات فولتر وديدرو وروسو . ونحن الآن نعيش على أبواب انقلاب اجتماعي خطير نرى ارهاصاته في التقدم الآلي للصناعات وفي الدعاية الاشتراكية التي هي نتيجة هذا التقدم وأيضاً في تقدم البيولوجية التي ستتحكم في المستقبل القريب في نظام الزواج والعائلة

والان يجب ان نلقي نظرة عـلى القرون الوسطى في اوروبا لنتبين فيها ارهاصات النهضة الكبرى التي يتواضع المؤرخون على أنها بدأت في ختـام القرون الوسطى سنة ١٤٥٣ عند سقوط القسطنطينية في يد الاتراك

ولقد سميت القرون الوسطى بحق القرون المظلمة . فهي تمثل العصور التي ساد فيها الجهل والتعصب اوربا والتي زالت فيها ثقافة الاغريق . وصار العلم أو مسخ العلم مقصوراً على الرهبان في الاديرة . وكانت معارف هؤلاء مقصورة على الآداب اللاتينية وعلى شيء قليل من نظريات اقليدس وعلى ما ترجم من العربية الى اللاتينية عن ارسطوطاليس وأفلاطون . وأولها طبيعي . وثانيهما إلهي . وكان أساتذة تلك العصور يجهدون أنفسهم في رياضة الفلسفة على ان تكون مطية للدين . وقد ريضت فلسفة ابن رشد وفلسفة تلميذه ابن ميمون لهذه الغاية . وكان علم الرهبان قائماً على النقل والجدل والألفاظ بعيداً عن الابتكار ، يعنى اكبر عناية بدرس آباء الكنيسة ويهمل الاهمال كله اية نزعة نحو الاستقلال في الفكر . والنزعة هي كل شيء في ثقافة الامم فهي التي تقرر وجهتها وتعمل لرقيها أو انحطاطها وتقديم العلم أو تأخيره . فاذا كانت النزعة في الامة هي النقل والجدل اللفظي فأنها لا تكتشف شيئاً في عالم الفكر . واذا صادفها اكتشاف لم تقصد اليه لم تنتفع به . ففي القرن الثالث للميلاد مثلا عرفت البوصلة وعرفت العدسة . ومع ذلك بقي هذان الاكتشافان عدة قرون يسمع بهما الناس ولا يحاول أحد ان يضع عنهما « نظرية » . وعرفت أشياء مهمة مدة القرون الوسطى عن التشريح والفلك والنبات ولكن لم يحاول أحد أن يجمع هذه

الاكتشافات في نظريات . والنظرية في العلم أداة اقتصادية لا يستهان بها ، تجمع المعارف المشتتة في قاعدة واحـــدة وتفتح الباب لايجاد قاعدة أخرى فتتقدم بذلك العلوم . ولكن نزعة القرون الوسطى كانت كما قلنا قائمة على النقل والمعارف تجمع وتحفظ لخدمة الدين

وكان العرب في اسبانيا قد اشتغلوا بالكيمياء واعتمدوا على التجربة في خلط العناصر والمركبات فاهتدوا الى معرفة جملة أشياء كيماوية . وكانت شهوة المال هي الغاية من هذه التجارب التي كانت ترمي الى احالة المعادن الخسيسة الى ذهب . وانتقلت عدوى هذه الشهوة من اسبانيا الى اوروبا فأخذ العلماء والمشعوذون يشتغلون بالتجارب العلمية. فكانت هذه نزعة جديدة اكتسبتها اوروبـــا من عرب الاندلس. ونحن نرى أثر هذه النزعة في « روجر بيكون» الذي مات سنة ١٢٩٢ . وهو أول عالم من القرون الوسطى نحس فيه بالروح العلمية . فقد قال عن العلوم التجريبية : « ان جميع العلوم ما عدا هذا العــلم اما انها تستعمل الجدل لاستنتاج النتائج مثل العلوم النظرية وإمـــا انها هي نفسها استنتاجات عامة ناقصة . والعلم التجريبي وحـــده يحقق الى درجة الكمال صحة ما يمكن الطبيعة أو الفنون أو الخداع عمله . فهو وحده يعلمنا كيف نقف عـــلى غباوات السحرة كما يعلمنا المنطق كيف نميز بين الصحيح والخطأ من الجدل »

أليس ارهاصاً بالنهضة العلمية ؟ ولم يقنع بيكون بالكلام فانه انكب على بواتقه يحلل ويخطط الاجسام، ويقال انه صنع نوعاً من البارود استخرجه من الفحم وتنبأ باختراع البواخر والمكروسكوبات » وكان يحض الطلبة في اكسفورد على تعلم العربية والاغريقية والعلوم الطبيعية مما استحق لاجله أن يتهم بمزاولة السحر وأن يحبس عليه ١٤ سنة بحكم البابا والكهنة. هذا في العلم . ولكن النهضة الدينية كان لهــا ارهاصات ايضاً في شخص « ويكلف » الذي مات سنة ١٣٨٤ : فانه ترجم التوراة الى الانكليزية وتجرأ على ان يضع مبدأ خطراً خلاصته ان كلمة الانجيل هي اساس المسيحية ولا عبرة بما يقوله الكهنة مما يخالفها

وبيكون وويكلف كلاهما انجليزي ولكن الشرارة التي قدحاها استطارت الى اوروبا . ففي سنة ١٤٠٠ نجد كاهناً بوهيمياً في براغ ينشر على الناس مذهب ويكلف . هذا الكاهن هو « جون هس » الذي قتل سنة ١٤١٥ . وعلم البابا بنشاطه في الدعوة الى مذهب ويكلف فأمر في سنة ١٤١٠ بأحراق كتب هذا الراهب الانجليزي وحــكم على هس بالحرم . وحــدث في سنة ١٤١٥ أنه رحــل الى كونستانس (في المانيــا) ليشترك في مناقشات المجمع الكنسي . فلما بلــغ المدينة قبض عليه الكهنة وحاكموه وقضوا عليه بالقتــل لهرطقته . فقتل دون أن يستغفر أو يبدي أقل ضعف . وأحرقت كتبه أمامه قبل قتله

ومما هو ذو مغزى أن ثورة ويكلف وثورة هس لم تقتصرا على الاصلاح الديني فقط . فلان الاول أحـــدث ثورتين بين الفلاحين في انجلترا . والثاني أحدث حركة وطنية في بوهيميا . لان العـــين اذا انفتحت للفساد في احدى نواحي النظام الاجتماعي امتد بصرها لسائر النواحي. والنفس اذا نزعت نزعة النقد للدين لم يرضها التسليم بسائر الفضائح في الحكومات أو التفاوت الاقتصادي أو غير ذلك. ولذلك نجد ان النهضة الاوروبية لم تكن نهضة دينية فقط بل كانت نهضة أدبية وعلمية ايضاً . وانما كان اساس هذه النهضات الرغبة في اصلاح الدين وكف رجاله عن أذى الناس . ومتى تجرأ الانسان على ان يقف في وجه آلهته لم يبال بعد ذلك بالقيود بل سرعان ما يحطمها وينطلق حراً قد خلع عنه مأثور السلف وأخـــذ ينظر بعين النقد لكل شيء

النهضة الاوربية

شملت النهضة الاوربية جملة مناحي النشاط الفكري . فقد كان لسان حال الناهضين في الدين يقول : « انشدوا الحق في الكتاب المقدس ولا تبالوا بالكهنة والكنيسة »

ولسان حال الناهضين في الادب يقول : « انشدوا الحقيقة في كتب القدماء وخاصة الاغريق ولا تبالوا بالكتاب المقدس »

ولسان حال الناهضين في العلم يقول : « دعنا مما حفظناه عن ارسطوطاليس وجالينوس واعمد الى بوتقتك وجرب وخذ مشرطك وشرح »

وبعبارة اخرى نقول ان النهضة بأنواعها قد استقت روح التجديد من ثلاثة مصادر :

١ ـ الادب وفنونه من الاغريق القدماء . وقد ابتدأت دراسة لغة الاغريق بعد ان مات في اوربا نحو الف سنة في أيطاليا ثم انتشرت عندما استولى الاتراك على القسطنطينية

فهجرها الرهبان وكانوا يدرسون هذه اللغة

٢ ــ العلوم التجريبية من عرب الاندلس

٣ ــ دراسة الكتاب المقدس من العبرانية والاغريقية .

ولكن كان هناك للنهضة دافع آخر يدفعها الى العمل ، نعني به سد طريــق التجارة بين اوربا وآسيا وباستيلاء الاتراك عــلى سوريا ومصر . فان مصر وسوريا عمهما الخراب لسد هذه الطريق وعدم انتفاعهما بمرور التجارة بين القارتين . ولكن اوربا انتفعت بغباوة الاتراك فعمدت الى اكتشافاتها الجغرافية العظيمة : ويمكن ان يقال ان هذه الاكتشافات كانت نتيجة النهضة . وهذا صحيح . ولكنها كانت ايضاً دافعاً آخر يجريء الناهضين في العلم والادب والفلسفة والدين على التفكير الحر الجريء : فان الراهب العالم الذي كان يدرس كتب القديس اوغسطين وينظر اليها نظرة الاحترام التي ينظر بهــا الى الكتب المقدسة تزعزع ايمانه به وبغيره من القدماء عندما رأى انه كان يجزم بان القول بوجود أناس في الجهة الاخرى من الكرة الارضية هرطقة ، لان هذه الجهة لم ير سكانها المسيح الذي جاء لجميع البشر . ألم ير هو ان كولمبوس قــد اكتشف اميركا سنة ١٤٩٢ وان فاسكودي غامــا قد بلغ جزائر الهند سنة ١٤٩٩ ؟

ولم يــكن الشك في آباء الكنيسة فقط بل تعدى الى ارسطوطاليس نفسه . فقد كانت كلمة ارسطوطاليس هي

العليا تتحطم الرؤوس في تفسيرها ولا تستطيع معارضتها طول مدة القرون الوسطى . وحسبك دليلاً على مكانة هذا الفيلسوف ان الرشديين والميمونيين كان لكل منهم فلسفة تعارض احداهما الاخرى . وكانت كلتاهما مع ذلك قائمة على أساس فلسفة ارسطوطاليس . كأن اقوال هذا الاغريقي العظيم اصبحت ناموساً طبيعياً يتفهمه الناس ولا يستطيعون انكاره وان كانوا يختلفون في تفسيره . فقد كان يقول بان الارض مركز الكون . وعاشت هذه العقيدة نحو ألفي سنة حتى كانت النهضة الاوربية . فاننا نجد « نقولا كاسا » الذي مات سنة ١٤٦٤ يعلن عن شكه فيها في هوادة وضعف بقوله : « لقد فكرت كثيراً ، وظني ان الارض غير ثابتة وانها تتحرك كما تتحرك الكواكب .. وأظن انها تدور حول محورها مرة كل يوم »

ولم يضطهد كاسا لهذه الظنون الخطيرة لأن رجال الدين لم يفطنوا لمرماها البعيد

المطبعـــة

اعتدنا رؤية الكتب والصحف نقتنيها ونقرأها بل نطرحها لكثرتهـــا ولقلة اثمانها حتى ليكاد يتعذر علينا أن نتصور زمناً كان يعيش فيه الناس بلا كتب او صحف مطبوعة. ومع ذلك فان هذا كان الواقع الى القرن الخامس عشر . ولم يكن فن الطبع نفسه مجهـــولا،فان الشرقيين والغربيين كانوا يعرفون الاختام منذ زمان بعيد ويطبعونها على المراسيم والمنشورات . وكانت اوراق الكوتشينة معروفة تباع للناس مطبوعة قبل ان تخترع طباعة الكتب بأكثر من قرن. ومع ذلك لم يفكر احد في طباعة الكتب الا في قرن النهضة ، القرن الخامس عشر . وانما كان ذلك لأن نزعة النهضة لم تكن بعد قد اشربت بها النفوس . والانسان يعمى عن ابسط الاشياء ما لم تتملك نفسه نزعة خاصة تجعله ينقب ويبحث ويتساءل ويشك ويجرب . وكان الناس في اوروبا مدة القرون الوسطى لا يعرفـــون من العلم سوى ما قاله

السلف الصالح يتضون اوقاتهم في تفسير اقوالهم على نحو ما يفعل بعض الشرقيين الذين هم نكبة الشرق الآن

وتنسب الطباعة الحديثة الى جوتمبرج الالماني الذي مات سنة ١٤٦٨ . فهو الذي صنع الحروف المنفصلة وطبع بها عدة كتب لا يزال يوجد منها للآن في متحف ميتز توراة مطبوعة باللاتينية ومعجم لاتيني وجزء من تقويم . وهذه اشياء ضئيلة القيمة في ذاتها ولكن جوتمبرج أشعل شرارة لو كان علم الرجعيون بمبلغ النار التي ستؤججها فيما بعد لوأدوا المطبعة في مهدها . فانه ما جاء القرن السادس عشر حتى انتشرت المطابع وصارت الكتب تخرج منهـا بالآلاف واضحة الخط رخيصة الثمن.فأقبل عليها الجمهور يستنير بهذه المعارف التي كانت قبلا وقفاً على الاغنياء . ورأى الكهنة انهم امام تيار قوي من الثقافة يكاد يطفو بهم ويغرقهم فألفوا المجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التي لا توافق الكنيسة على نشرها . وكانوا ينشرون اسماء هذه الكتب فيما يسمى « القائمة » او « الدليل »

ولكن « القائمة » بدلاً من ان ترد الناس عن قراءة هذه الكتب كانت تحثهم على اقتنائها. وكان الطباعون في المانيا وهولندا يبعثون وكلاءهم لكي يبحثوا عن الكتب الواردة بقائمة الحرم فينسخونها .ويحملونها الى مطابعهم في شمال اوروبا ويطبعونها . وكانت « قائمة » الكنيسة اكبر اعلان للكتاب . وصار للمطابع الشهيرة في اوروبا وكلاء

يقيمون في رومية وينسخون الكتب الواردة بالقائمـة وينفذونها الى مطابعهم مغتبطين بتحريم الكنيسة لها لأن هذا التحريم كان اكبر ضمان لرواجها

ويطول بنا الكلام اذا اردنا ان نتتبع الاضطهادات التي نالت المؤلفـين والطباعين من الكنيسة والحكومات . بل آلة الطباعة نفسها ، وهي قطع مؤلفة من جماد لا يحس، نالت شيئاً من الاضطهاد لانه كان يحكم بأغلاقها كأنهـا جسم حي ينشر الفساد بين الناس ويعاقب بتعطيله . ولكن « قائمة » الكنيسة واحراق الكتب واضطهاد المؤلفين وحبس الطباعين وتعطيـل المطابع كل هذه لم تستطع أن تمنع الثقافة من الانتشار لان فكر الانسان وشهوته للتطور يأبيان الا ان يشقا لها طريقاً وسط الاضطهاد نحو الحرية والسمو . وخير ما يقال عن الطباعة ما قاله ملتون الشاعر الانجليزي سنة ١٦٤٤ . فقد تكلم ملتون عن مراقبة الطباعة وقال انها تؤدي « الى تثبيط الثقافة ووقف المعـارف وذلك ليس فقط بتعجيز كفاياتنا وثلمها في فحص ما نعرفه بل ايضاً باعاقة الاكتشافات الجديدة التي كان يمكن ان تكتشف سواء في الحكمة الدينية او الحكمة المدنية » . واذا كان تيار الحقيقة « لا يتدفق ماؤه ويسير قدماً فانه يأسن ويستحيل بركة كدرة قوامها التجانس والتقاليد » . ثم يضرب المثـل بالاقطار التي بها رقابة على المطبوعات ويقول : « انظر الى ايطاليا واسبانيا هل هما احسن حالا

بمثقال ذرة او هل هما اشرف او احكم او اطهر بما اكتسبته كل منهما من قسوة محكمة التفتيش في معاملتها للكتب ؟ »
وايضاً : « اعطني الحرية في ان اعرف وان اقول وان اناقش كما يملي عليّ ضميري قبل ان تعطيني أية حرية اخرى »

البروتستانتية

نجحت البروتستانتية لانها جاءت في وقت كان قد آن فيه ان تنجح ، فقد خرج قبلها كثيرون على رومية طوائف وافراداً ولكنهم لم ينجحوا لأن الزمن لم يكن قـــد نضج بعد للنجاح

نجحت البروتستانتية لشيئين :

١ ــ لأن البابوية كانت قد طمت وطغت بحيث كان الكهنة يبيعون للناس غفرانانهم عن خطاياهم ، وايضاً كان الناس قد سئموا المظالم التي ارتكبتها محاكم التفتيش

٢ ــ ظهور مبدأ القوميات سبب آخر للنهضة البروتستانتية. فأن الملوك والامراء الذين كانوا يحكمون اوروبا في شمال الالب كانوا يغارون من سلطة البابا ويميلون الى الاستقلال عنه ، ورأوا ان في الانفصال الديني عن كنيسة رومية زيادة في نفوذهم وسلطانهم فروجوا لذلك الدعاية البروتستانتية في بلادهم

وصاحب الدعاية البروتستانتية هو لوثر . ولد سنة ١٤٨٣ ومات سنة ١٥٤٦ وهو الماني الدم والمنشأ والوطن . بدأ حياته راهباً ثم صار استاذاً للفقه في جامعة جوتنبرغ ، وفي سنة ١٥١٧ جاء المدينة راهب يبيع الغفرانات فأعلن لوثر أن هذا العمل يناقض المسيحية . وعقدت على اثر ذلك مؤتمرات من الكهنة نوقش فيها لوثر فأصرّ على تخطئة كنيسة رومية وطبع ثلاث رسائل يوضح فيها مذهبه وينتقد البابوية . واذاع البابا منشوراً سنة ١٥٢٠ يجحد فيه آراء لوثر ، فأخذ لوثر هذا المنشور واحرقه على الملأ في جوتنبرغ

وصح عندئذ في أذهان الالمان ان النزاع بين لوثر وبين البابا هو نزاع بين الحرية والتقيد ، وبين القومية والمسيحية ، فانضموا الى لوثر . وفي سنة ١٥٢١ ترجم لوثر التوراة والانجيل الى الالمانية ، وكان لا يقرأ قبلاً إلا في لغة المسيحية ، اللغة اللاتينية . وفي سنة ١٥٢٥ قطع الطريق بينه وبين رومية بأن تزوج راهبة ، وعاش عيشة هنية الى أن مات سنة ١٥٤٦

والآن ماذا ربح العالم من خروج لوثر على كنيسة رومية ؟ كان أول الرابحين الكنيسة الكاثوليكية نفسها ، كنيسة رومية ، فأنها عندما رأت الصدمات تتوالى عليها واوروبا ينشق نصفها عنها ويعمل على إزالتها من الوجود اضطرت الى الاعتدال والضبط والاصلاح فألغت بيع

الغفرانات ونزلت محكمة التفتيش عن بعض قساوتها ، وضبط البابوات انفسهم فلم يعد يرأس الكنيسة أمثال بورجيا . واصطلح حال الرهبان وظهرت شيعة اليسوعيين الذين كانوا مثالاً للهمة في خدمة الدين والعلم معاً

وكان ظهور البروتستانتية ربحاً للحرية الفكرية لانها وان كانت قد ظلمت وطغت ايضاً إلا انها لم يكن بها محكمة تفتيش ولا قتل ولا إحراق ولا مصادرة مما كان فاشياً وقتئذ . ثم ان وجود مذهبين سهّل على الناس الجرأة على دعاوى الكنيسة وحرر البحث الديني بعض التحرير من القيود الاستبدادية التي كان يضعها البابا . ثم ان ترجمة التوراة والانجيل للغات اوروبا الحديثة جعل الناس يدرسونها وينقدونها لانهما كانا قبلاً وقفاً على من يعرف اللاتينية . أما الآن فأن كل بروتستانتي صار يمكنه الدرس والنقد ما دام يقرأ لغة بلاده

وليس من شأننا ان نبين الفرق المذهبي بين البروتستانتية والكاثولكية ، وانما خلاصة ما يمكن أن يقال في ذلك أن الكاهن في الكاثوليكية وسيط بين المسيحي وربه ، أما في البروتستانتية فهو مرشد فقط

أرازموس

في هذا الفصل وفي بضعة فصول تالية سنترجم لحياة طائفة من زعماء التفكير كل منهم يمثل طرازاً خاصاً من هذا التفكير من عهد النهضة الى القرن الثامن عشر ، وفي خلال هذه التراجم سيرى القارىء مناظر عدة للكفاح بين الفكر الانساني الذي يبغي الانطلاق والحرية وبين القيــود التي وضعها الجمود لحبسه وكبحه

ويجب أن نضع في أول قائمة هؤلاء الابطال « أرازموس » الذي وُلد سنة ١٤٦٦ ومات سنة ١٥٣٦ . فأنه كان يمثل النزعة الى الدرس والثقافة ، وليس شيء يعمــل للحرية الفكرية ويضمن بقاءها ويحث على الدفاع عنها مثل الثقافة الواسعة المتشعبة لأن الوقوف على الآراء المختلفة والمتناقضة يشبع القلب بروح التسامح وكراهة التعصب

ولد ارازموس في هولندا وكان يشبه « دافنشي » ، أحد رجال النهضة ايضاً في ايطاليــا من حيث ان كليهما

كان ثمرة السفاح . وتربى في مدارس هولندا وأديارها
ثم رحل الى باريس ومنها الى انكلترا حيث أقام بأكسفورد
مدة عرف فيها توماس مور صاحب الطوبى المشهورة .
وهناك تعلم اليونانية ثم ارتحل الى القارة ثانية وعـــاد الى
كمبردج بانكلترا فدرس اليونانية . واخيراً قر قراره في
بازل في سويسرا واخرج فيها معظم مؤلفاته . وكان يرتحل
عنها ثم يعود اليها حيث مات سنة ١٥٣٦

ورأى أرازموس في حياتـــه انقلابين في الافكار أولها
اكتشاف اميركا سنة ١٤٩٢ ، وثانيها ترجمة لوثر للكتاب
المقدس سنة ١٥٢١ . وكان هو نفسه جديراً بهذا العمل
الاخير . بل كان أجدر من لوثر به لأنه كان اثقف منـــه
وأعرف باللاتينية واليونانية ، ولكن نزعته كانت أميـــل
للثقافة والدرس منها الى الكفاح والمصادمة . بل يمكن أن
نقول انه احياناً يخشى النار التي كانت تعد للمهرطقين ،
فكان يصادق الكاثوليك والبروتستانت معاً ويعيش في ايطاليا
حيث محكمة التفتيش كما يعيش في المانيا حيث كانت تبلغ
الحماسة للمذهب الجديد درجة التعصب المؤذي . وكان تنقله
هذا بين المذهبين ، ثم ثقافته الواسعـــة في أدب الاغريق
والرومان القدماء وايضاح روح الجرأة الذي ابتعثـــه في
النفوس اكتشاف اميركا ، كل هذه جعلته يقول بالتسامح
ويدعو اليه

واكبر مآثر ارازموس طبعه للانجيل سنة ١٥١٦ باللغة

اللاتينية تقابلها الاغريقية صفحة بعد صفحة . فانه بهذا العمل افتتح عصراً جديداً لدرس الانجيل درساً تاريخياً دقيقاً ثم انه محص كتب القدماء وحررها من نسخ النساخ واعاد طبعها فابتعث في النفوس ذوق الدرس لهؤلاء القدماء . أما عن التأليف فانه لم يضع سوى كتاب واحد هو « مدح الجنون » وسائر حياته قضاه في تحرير الكتب القديمة

و « مدح الجنون » هذا من الكتب الفريدة التي اثرت اثراً كبيراً في عصر النهضة . فانه وضعه على طريقة « دون كيشوت » وضمنه المجون والتهكم على الاوضاع والانظمة السائدة في عصره . تكلم فيه عن تنطع العلماء وجهل الجهلاء ولم يترك فيه أحداً ذا مكانة من البابا الى الرهبان ومن الملوك الى الجنود حتى آذاه بغمزة وعرض به . وعبرة الكتاب التي يستخرجها القارىء منه أن العالم حافل بالاغلاط والمساوىء وانه يحسن بنا ان نتسامح لأنه ليس لاحد منا ان يعتز بعلمه ويتيه به على الناس . وأنه خير لنا ان ننظر الى الانجيل ليس باعتبار انه شريعة للناس تسن لهم نظام الحكم والمعيشة بل حسبنا منه أن يكون مرشداً لنا في الاخلاق

ومن الناس من ينقم على أرازموس انه كان مع تشبعه بروح العصر ومع معرفته بفضائح زمانه لم يعمد الى الثورة كما فعل لوثر . وقد اجاب هو على ذلك

بقوله انه « لو امتحن لفعل مثلما فعل بطرس » اي انه ينكر سيده وينكر الحق حقناً لدمه . والحقيقة ان مهمة الرجل كانت مقصورة على نشر الثقافة والنقد فهو اديب درس وألف وعمم المعارف ولم يكن خطيباً يكافح ويناضل

رابليه

ولد رابليه في اقليم تورين في فرنسا سنة ١٤٩٠ ومات سنة ١٥٥٣، وتعلم في مدارس الرهبان في فرنسا، وسلك في سلك الرهبانية الى ان بلغ الاربعين حين جحد حياة النسك وخرج الى الدنيا سنة ١٥٣٠ . ومما يؤثر عنه مدة تلمذته أنه أكب على الاغريقية فتعلمها وضبطت في صومعته عدة كتب لهيرودوتس وغيره فطرد من الدير وانتقل الى دير آخر أخف رقابة منه

وخرج من الرهبانية وهو في الاربعين . فتتلمذ من جديد ودرس الطب في مونبلييه ونال لقب الدكتوراه بعد سبع سنوات سنة ١٥٣٧ . والتحق بمستشفى ليون وهناك أخذ يحرر الكتب القديمة ويطبعها على نحو ما كان يفعل ارازموس . وزار ايطاليا والمانيا ثم عاد الى باريس ومات سنة ١٥٥٣

ويمتاز رابليه على ارازموس بشيء آخر غير حب الثقافة

والدرس ونشر الكتب القديمة . وذلك انه نزع نزعة علمية فأخذ يدرس التشريح . وكانت الكنيسة تنكر هـذا العلم انكارها للتوسع في درس القدماء ، اذ كانت تخشى مـن القدماء روح الحرية التي كانت تتسم بها كتب الاغريق والرومان ، كما كانت تخشى ايضاً نبش النسخ الاغريقية القديمة للكتاب المقدس ومعارضتها بما كان شائعاً منه . وكانت ايضاً تخشى الروح العلمية لما فيها من نزعة التجربة وايثار حكم الواقع على حكم التقاليد

ويعزى الى رابليه اكـبر حادث في الادب الفرنسي فأنه في سنة ١٥٣٢ تجرأ ووضع اول كتاب باللغة الفرنسية العامية . وكان قد مضى على فرنسا اكثر مـن الف سنة لا يقرأ فيها من الكتب سوى ما كانت لغتـه باللاتينية . فكان الفرنسي اذا اراد ان يخرج من الامية وجب عليه ان يتعلم هذه « الهيروغليفية » . يتعلمها متعسراً ويقرأهـا متعسراً ويرطنها مع الرهبان رطانة قلما يستطيع ان يؤدي بها ابسط افكاره . فاذا خرج من الدير أو مـن المدرسة تكلم مع بني وطنه بالفرنسية . فكان يفكر برأسين : رأس يشافه به الناس في الاسواق والمنزل والحقل ولغة هـذا الرأس هي الفرنسية . ورأس يحتفظ بـه للكتب والدرس والثقافة ولغة هذا الرأس هي اللاتينية

ووضع رابليه كتاباً بلغة العامة هو كتـاب « حياة جرجنتوا وابنه بنطجرويل واقوالهما واعمالهما » وهو اسطورة

عن عملاقين تخيلها رابليه من عالم الوهم لكي يحمل بهما على عالم الحقيقة . وغايته أن يثبت ان الاصل في طبيعة الانسان طيبة العنصر وصدق النظر وصحة الحكم، وانه لا يفسده سوى التقاليد والقيود التي يضعها الدين . ومع ان الكتاب خيالي اللهجة والاشخاص فان جامعة السربون جحدته وحكم برلمان باريس باحراقه . ولم يضطهد رابليه بأكثر من ذلك فان اللهجة التي اتخذها في رواية اسطورته كانت حائلاً دون محاكمته

وتنحصر خدمة رابليه للحرية الفكرية في أنه :

١) اطلق الذهن الفرنسي من قيود الاداء اللاتينية وجعل الفرنسية لغة الثقافة والدرس

٢) نزع نزعة علمية بدرس التشريح

٣) سار في النهج الذي اختطه قبله ارازموس بدرس القدماء وتوسيع الذهن بالوقوف على فلاسفة الاغريق والرومان وتحرير كتبهم

٤) وضع الطبيعة البشرية امام التقاليد الدينية وآثر الاولى على الثانية

سوزيـــــني

سبقت ايطاليا سائر الامم الاوروبية في ترويج النهضة . وكانت ايطاليا خاصة تمتاز في طبع الكتب او نسخها من سائر الاقطار . ففي القرن السادس عشر بينما كان لا يوجد في انجلترا سوى ست عشرة بلدة بها مطابع وبألمانيا عشرون كان بأيطاليا مائة بلدة تحتوي كل منها على مطبعة تعمل ليل نهار جادة في طبع الكتب ونشرها على الناس . وكان الامراء الذين يروجون الدعاية للنهضة في ايطاليا عديدين منهم البابا نقولا الخامس ومنهم الفونس أمير نابولي ومنهم اسرة مديتشي ومنهم البابا ليون العاشر . فأن كل هؤلاء وغيرهم كانوا يكثرون الكتبة لنسخ الكتب القديمة مـــن الاديار لمكاتبهم أو كانوا يأمرون بطبعها ونشرها عـلى الناس . وأنت أيهـــا القارىء العربي يجب ان تذكر أن أول ما طبع من الكتب العربية في العالم انمـــا كان في ايطاليا بأمر باباوات رومية

ولكن مع ان ايطاليا تولت زعامة النهضة مدة طويلة وأخرجت من مطابعها مئات الكتب التي كانت محبوسة في أديارها ونشرتها على الناس فأنها لم تتأثر قط بالنهضة الدينية بل بقيت كما كانت كاثوليكية وعاشت فيها محكمة التفتيش الى سنة ١٨٧٠ . ويرجع ذلك الى اقامة البابوية في رومية وتسلطها على البلاد بجيش جرار من الكهنة والرهبان . فقد كانت رومية منذ القرن الرابع المسيحي الى الآن معسكر النصرانية الاكبر ينضوي الى لوائها جميع الاولياء لهذا الدين

ولكن مع جدب التربة الايطالية لبذور الاصلاحات الدينية نجد ان شهوة التطور الديني قد تملكت بعض الافراد والاسر في ايطاليا . وأسرة سوزيني تعد في طليعة هؤلاء . نشأ منها إثنان عمل كلاهما للتحرير الديني في ايطاليا . وسنقنع بترجمة واحد من هذه الاسرة هو « فوستوس سوزيني »

ورث فوستوس عن جده ضيعة صغيرة، ولم يتزوج الا بعد أن بلغ الخمسين فاستطاع أن يعيش مستقلا يرصد وقته للدرس خالياً من هموم العائلة والمعاش . وزار فرنسا واقام في ليون مدة ثم عاد الى ايطاليا سنة ١٥٦٣ . واجتاز في عودته بمدينة جنيف فرأى حكومة كالفن وكيف تكون المسيحية عندما تستحيل شريعة يتعامل بها الناس مما سنشرحه بعد . وامضى بعد ذلك ١٢ سنة في خدمة احدى أميرات

اسرة مديتشي المدعوة ايزابلا . ثم غادر ايطاليا الى بازل في سويسرا حيث أكب على ترجمة المزامير الى اللغة العامية الايطالية وأخذ في تأليف كتاب عن حياة المسيح. وقد اطلق على كتابه اسم « المسيح الخادم » وهو اسم ذو مغزى يدل على الروح الجديدة ، التي صار ينظر بها الناس الى المسيح والى الكنيسة . فأن المسيحية كانت الى هذا الوقت ديانة تمثلها كنيسة قوية تسيطر على عقول الناس وأجسامهم وتتخذ هيئة السيد أمام العبيد. ولكن فوستوس أراد ان يضع المسيح موضع الخادم للناس وأن يعود الناس الى ديانة المسيح التي نجدها في الانجيل ، ديانة التواضع والتسامح والخدمة العامة ، لا ديانة بولس الشائعة في زمنه ديانة الكنائس والكهنة ومحاكم التفتيش

ولم يقع فوستوس بكلمة في كل ما كتبه يمكن محكمة التفتيش أن تؤاخذه عليها وكذلك لم يذكر كتابة أو مزاميره المترجمة في « الدليل » . فقد كان فوستوس يعيش كما قلنا مما يحمل اليه من ريع ضيعة صغيرة في ايطاليا. فكان لذلك يحرص على الا يغضب محكمة التفتيش التي كان أهون ما عندها من عقاب مصادرة المالك في ملكه . ومما ساعده على الحذر والحيطة في كتابه أنه كان أصم ، والصمم على الدوام من دواعي الحذر . وكان من حذره أن يصطنع أسماء مختلفة وأن يداور في العبارة ويقنع بالتلميح دون التصريح

وكانت اوروبا في ذلك الوقت ميداناً للحماسة الدينية يقتتل فيه المذهبان القديم والجديد أو الكاثوليكية والبروتستانتية ، وكانت بولندا في ذلك الوقت ملجأ للاحرار . فقد كان لهـا برلمان غريب لا يمكن ان يصدر عنه قانون ما دام عضو واحد يعارض في اصداره . فكان هذا النظام مانعاً من اشتراع أية شرعة يراد بها اضطهاد أحد

وكان في بولندا طبيب ايطالي قرأ تاريخ المسيح الذي ألفه سوزيني فأعجب به واستدعاه من بازل الى بولندا . فرحل من بازل الى بولندا وقضى فيها سائر عمره الى أن مات سنة ١٦٠٤ . وهناك ، في بولنـدا ، وضع كتابه « تعليم راكوف » في ضرورة التسامح ننقل منه هـذه القطعة الآتية :

« فلندع كل انسان حراً للحكم على دينه . لأن هذه هي القاعدة التي يبسطها لنا « العهد الجديد » ولأننا نجد تعـاليم الكنيسة الاولى تقول بهـا . ومن نحن — نحن الاشقاء — حتى نخنق ونطفىء في الآخرين نـار الروح المقدسة التي أشعلها الله فيهم ؟ هل احتكر احـد منا معرفة الكتب المقدسة ؟ ولم لا نتذكر ان سيدنـا الوحيد هو يسوع المسيح وأننا جميعنا اخوة ليس لاحد منـا ان يسيطر على نفوس الآخرين ؟ وليس من ينكر ان يكون أحد منا أعلى من الآخرين ولكننا نستوي جميعاً في الحرية وفي علاقتنا بالمسيح »

وهذا كلام بديع ولكنه جاء في غير اوانه فأنه عندما نشر كتاب سوزيني عن المسيح في كراكوف حدث هرج واضطراب في المدينة من العامة كاد يودي بالمؤلف . وكان اكبر ما دعا العامة الى الاضطراب انكار سوزيني لعقيدة التثليث

مونتـــين

للوسط تأثير في مزاج الشخص من حيث التسامح أو التشدد ، كما أن له تأثيراً في اعتباره للفضائل وقيمة ممارستها . فالتجار مثلاً احرص على انجاز وعودهم من الزراع والصناع والموظفين . وليس ذلك لأنهم أشرف نفساً أو أدق ذمة وانما هم يحافظون على وعودهم لان التجارة تتطلب ذلك . ولا نجاح لها إلا اذا كانت كلمة التاجر التي يشافه بها تاجراً أو معاملاً تقوم مقام الوعد المكتوب . ومن رأى اعمال البورصة وكيف تقطع الوعود فتأتي بالربح أو الخسارة فلا يمكن احد الطرفين التخلص منها ، مع انها لم تقطع إلا مشافهة ، أو من رأى الصاغة وهم ينقلون المصوغات الثمينة من حانوت الى آخر بلا وزن يعجب من مبلغ أمانة هؤلاء التجار ، وخاصة اذا قابلها بما يعرفه عن سائر الافراد من الصناع أو الزراع أو غيرهم . وليس مرجع هذه الامانة الى فضل خاص يختص

به التاجر دون غيره وانما التجارة في ذاتها تحتاج الى الامانة الشديدة في المعاملة وانجاز الوعود الشفاهية . ومن هنا امتياز أمة تجارية مثل انجلترا وسويسرا بالامانة في المعاملة

ولكن التاجر يمتاز بشيء آخر . وهذا لأنه لاحتياجه الى معاملة جميع الطوائف من جميع الملل يضطر الى التسامح . فصاحب الحانوت الذي ينتظر رزقه من كل غاد ورائح لا يستطيع ان يسب اليهود أو يرفض بيع ما عنده من السلع للملحد أو يأبى ان يربح في صفقة على يد كافر بدينه لأنه يعرف أن التشدد — ناهيك بالتعصب — يحصر عدد معامليه في حين هو يرغب في زيادتهم . ولهذا السبب نجد المدن أكثر تسامحاً من الارياف

وقد نشأ مونتين في وسط تجاري . كان ابوه يتجر بالسمك ، وكانت امه ترجع في نسبها الى دم اسباني يهودي ، فكانت هذه الظروف الخاصة تعمل لكي ينشأ كارهاً للتعصب . ثم رأى ايضاً في حياته مقتلة سان بارتولوميه سنة ١٥٧٢ حين فتكت الكنيسة الكاثوليكية والحكومة بنحو ٢٥٠٠٠ فرنسي بروتستانتي . ورأى ان الكنيسة لم يثب اليها رشدها بعد هذه المقتلة الفظيعة بل تغلغلت في الضلال والفساد ، وانشأ البابا غريغوري الثالث عشر نوطاً في ذكر هذه المقتلة

ولد مونتين سنة ١٥٣٢ ومات سنة ١٥٩٢ وتعلم اللاتينية ودرس القانون وتعين قاضياً في المحاكم الفرنسية ، ثم ساح

في سويسرا وايطاليا والمانيا ، ثم عاد الى فرنسا حيث صار محافظاً لمدينة بوردو . وبعد ذلك عاش في باريس

ويُذكر مونتين الآن بمقالاته التي عالج فيها جملة مواضيع . ومن هذه المقالات واحدة عنوانها « عن حرية الضمير » تكلم فيها عن يوليان الامبراطور الكافر وجعله مثالاً صالحاً للتسامح الذي يجب ان يتصف به الملك أو الامير حتى يعيش في كنفه جميع الناس مهما اختلفت عقائدهم الدينية

وقد احتاج مونتين الى مداراة الكنيسة فكان يذهب للصلاة كل أحد ليتقي بذلك غضب الكهنة . وكان لا يقول برأي إلا بلهجة الاعتدال في صورة التساؤل : « ماذا نعرف ؟ »

وكان من أثره أنه خفف ضغط الكنيسة للناس وطبعت مقالاته الاذهان بطابع التسامح الذي تتسم به الثقافة الاوربية الآن

برونو

في سنة ١٦٠٠ في رومية ، المدينة الخالدة ، في اليوم السابع عشر من فبراير جمع كدس كبير من الحطب . واخرج من السجن رجل كان قد قضى فيه ست سنوات . وكان الرجل شاحب الوجه نحيل الجسم مضت عليه ايام وهو يؤخذ من سجنه الى محكمة التفتيش فيطلب منه كهنة المحكمة ان يجحد مقالاته في المسيح والله والقيامة . فيرفض الرجل . فيعاد الى السجن ثم يعاد استجوابه فيصر الرجل على الرفض . واخيراً تحكم عليه محكمة التفتيش بالاحراق فيسمع الحكم وهو هادىء مطمئن ويخرج من المحكمة الى النار التي أعدها شياطين الانس وهو يقول لكهنة المحكمة : « لعلكم أيها القضاة وانتم تنطقون بهذا الحكم تحسون من الفزع والرعب اكثر مما أحس انا عند سماعي له »

ويساق عندئذ الى النار فلا تمضي دقائق حتى يصير رماداً

هذا الرجل هو برونو الايطالي ، ولد سنة ١٥٤٨ واستشهد سنة ١٦٠٠ . نشأ في نابولي وترشح للرهبانية ورسم راهبا دومينيكياً . ثم وقع له انه لا يؤمن بالانجيل فهجر ايطاليا وجاب اقطار اوربا ، يطرأ على البلدة فيقيم بها اياماً أو اشهراً حتى اذا علمت الشرطة بخبره أعلنوه بتركها فيرحل عنها الى غيرها وهو على وجل متصل من الكبس والمصادرة وذلك لان برونو كان يختلف عمن سبقوه من رجال الحرية الفكرية من حيث الجرأة والغلو . فبينما كان اولئك ينكرون بعض العقائد في الانجيل كان هو ينشر الانجيل كله ويجاهر بعدم ربوبية المسيح ، فلم يكن يلقى غير النظر الشزر من جميع المسيحيين المتعصبين والمتسامحين الكاثوليك والبروتستانت . وبينما كان رجال النهضة يقولون بالرجوع الى الاغريق كان هو ينكر على جميع القدماء أي سلطان على الفكر ويقول مع دلارأميه الفرنسي : « دعوا الموتى يدفنون موتاهم »

ومضى برونو في رحلاته فأقام اشهراً في تولوز ثم انتقل الى باريس وهناك تعين موظفاً في سفارة فرنسا بلندن ، فرحل الى لندن ثم عاد الى المانيا ومنها قصد الى براغ. وفي كل هذه البلدان لم يجد احداً يحميه من الكبس والطرد . وكانت شهرته تسبقه فلا تكاد قدماه تطآن احدى البلاد حتى يرى مندوب الحكومة يستعجله في الرحيل. ولكنه طول هذا الوقت كان لا يهدأ عن الكتابة . يتهكم بالدين ويحمل على المضطهدين وتجري على قلمه مثل

هذه العبارات المخطرة : « ليس للحكومـــة الحق في ان تعين للناس تفكيرهم » أو « ليس للهيئة الاجتماعية أن تعاقب بالسيف اولئك الذين ينشقون عن عقائدها الشائعة »

وكان لارسطوطاليس في عهده سلطان يشبـــه سلطان الدين حتى كان الطالب في جامعة اكسفورد يغرم بغرامة قدرها عشرة شلنات اذا هفـــا هفوة تخالف تعاليم هذا الفيلسوف . وكان برونو قد أخذ يدرس الفلك فكان يكفر بتعاليم ارسطوطاليس في الفلك ويجاهر بتأييـده لنظريات كوبرنيكوس . وكوبرنيكوس هذا من رجال النهضة الذين جحدوا فلك القدماء وقال بأن الارض تدور هي وسائر الكواكب حول الشمس

وعلى ذلك كان كفر برونو مزدوجاً بالانجيل وبالقدماء فما هو أن عم شطر البندقية وهدأ بها اياماً حـــتى كبسه رجال محكمة التفتيش وحملوه الى روميـة حيث بقي اكثر من ست سنوات يعاني مرارة السجن وآلامه . وفي ختام هذه الآلام أشعلت النار امام جمهور من أهل رومية يطيف به وهو يمشي اليها بقدم ثابتة

ولكن الدرامة لم تتم فصولاً ، فأن برونو تقـــدم الى النار سنة ١٦٠٠ وقلبه معمور بأيمانه بنفسه وبالحقيقة ، لا تدمع له عين ولا ترتجف له يد . وبعد ٣٠٠ سنـــة من إحراقه كان البابا يبكي لأن أهل رومية قـد اقاموا تمثالاً لبرونو في المكان الذي أحرق فيه ...

وهكذا يكتب الانتصار للحرية على الاستعباد

وليس يجدي القارىء أن نسرد له عقائد برونو في العلم والدين ، لأنه هو نفسه لم يستشهد من أجل هـذه العقائد بالذات ، بل من أجل حقه في الحريـــة الفكرية في أن يعتقد ما يشاء . وانما نقول انه كان يمتاز بمسحة « حديثة » على عقائده ، فكان يقول بأن النجوم شمـــوس حولها كواكبها تدور أرضنا وسائر الكواكب حول الشمس . وكان يقول إن الله هو روح المادة وان الكون غير متناه . وكان يقول كما قال ابن رشد من قبل ان الدين انمـــا نقصد به منفعة العامة فقط ، أمـــا العلماء ففي غنى عنه بعلمهم

الدين شريعة

ليس هذا الكتاب دعوة الى كراهية الدين ، وانما هو دفاع عن حرية الشخص في اختيار دينه كما يراه في مرآة ذهنه وضميره . وبعبارة اخرى نقول إن الدين يؤذي الناس اذا كانت الحكومة تسومهم اياه ، لانه يقف حاجزاً دون حرية التفكير وحرية الاعتقاد

وليس انسان يستطيع أن يعيش بلا دين ما لم يكن أبله أو مغفلاً لأن الدين ليس في الحقيقة سوى استقرار الفرد على علاقة ما بينه وبين الكون أصله وغايته وما فيه من ناس وحيوان . فدعامة الدين يجب أن تكون قوة داخلية نابعة من الذهن نؤمن بها ايماننا بالحقائق العلمية المجربة ، وليس يجوز أن تكون سلطة خارجية تأمرنا بالايمان فنؤمن ، فاذا لم نؤمن عوقبنا بالجلد أو الحبس أو القتل

ثم يجب ان نذكر أن العقائد التي تأمر بها سلطة خارجية

وتطالبنا بممارستها لا يمكن أن تكون سوى قواعد . والقاعدة بجامده جمود الحروف المؤلفة منها كلماتها ، ولكن حياة الانسان دائمة التطور ، والتطور هو التحول من حال الى حال . فمثل هذه العقائد اذن يجب ان تتناقض مع الحياة وتتعارض مع رقي الانسان ، إلا اذا اتيح لها علماء يقومون بتفسيرها بحيث لا تتناقض مع روح الزمن . أما اذا لم يتح ذلك فأنه يجب عندئذ إما أن تجمد الامة وتموت وإما أن تخلع هذه العقائد عنها ، ونحن في هذا الفصل سنعرض لاثنين حاول كل منهما أن يجعل الدين شريعة جامدة .

وأول هذين الاثنين هو « كالفن » الذي ولد سنة ١٥٠٩ ومات سنة ١٥٦٤

وهو رجل فرنسي اعتنق البروتستانتية وهو في سن الشباب وتحمس لها ودرس القانون وعاش في باريس ثم رحل الى بازل حيث وضع كتاباً عن المسيحية . ثم انتقل الى جنيف ، ولكن أهالي هذه البلدة لم يطيقوا حماسته وطردوه ، فذهب الى ستراسبورغ ، ولكنه لم يبق طويلاً بعيداً عن جنيف فأن حزبه قوي وتكاثر حتى استدعاه الى المدينة . وكانت الدعوة من البلدية ومن الكهنة ومن الاهالي فلم ير كالفن بداً من الاستجابة لدعوتهم ، فعاد الى جنيف وشرع في برنامج عجيب .

انما يجب أن نعرف انه في جميع أحكامه المخطئة كان مجتهداً اجتهاد الغزالي ، كلاهما ينوي في قلبه الاخلاص ،

وانما الخطأ جاء لكليهما من النظر الديني لاحوال هذا العالم. فقد عرفنا من نزاهة الغزالي أنه ترك منصبه في المدرسة النظامية ، وترك عائلته ، ونسك نحو عشر سنوات . والآن يجب ان نعرف من نزاهة كالفن أنه عندما مرض بالمرض الاخير الذي مات فيه رفض أن يقبل مرتبه ، لأن المرض منعه من أن يخدم به حتى يستحقه . وعندما مات سنة ١٥٦٤ قال فيه البابا بيوس الرابع « ان قوة هذا الهرطيق ترجع الى انه لم يكن يبالي بالمال »

ويجب ان نذكر ان عصر كالفن كان عصر الحدة الدينية . ففي السنة التي خرج فيها كالفن من أحضان الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٣٤ أسس « اغناطيوس لويولا» فرقة من اليسوعيين للدفاع عن المذهب القديم . ورأى العالم الاوروبي أن عصر المجانة قد مضى وأن الظفر سيكتب للجاد في دعوته . فما هو ان هدأ كالفن في جنيف حتى شرع يكتب للناس شريعتهم الجديدة ويفحصهم ويسائلهم عن المذهب الجديد يجمعهم كل عشرة معاً ويأخذ في تعيين ما يجب ، وما لا يجوز ، ان يؤمنوا به . وبعد ذلك أقنع مجلس المدينة بطرد جميع من يؤمن بالكاثوليكية. ثم ألف مجلساً يشبه محكمة التفتيش ، يفتش ضمائر الناس فمن روى أنه يعتقد من العقائد ما يغاير مذهب أهل جنيف طلب منه أن يجحد عقائده . فاذا رفض اخرج من المدينة ومنع من الاقامة فيها . ولكن الهرطقة لم تكن العلة الوحيدة

للعقاب . فأن كلمة واحدة ينطق بها على سبيل الفكاهة رجل يحضر عرساً وقت كتابة العقد امام الكاهن كانت تكفي لعقابه بالحبس . واليك شيئاً من المحرومات التي جرمها كالفن على أهل جنيف : الرقص والغناء واللعب بالكوتشينة والمقامرة ولبس الحرير ..

وهذا كله لان كالفن أراد ان يجعل المسيحية شريعة مدنية جامدة . ولكن جنايته التي تضعه في صف السفاحين هي قتله لسرفيتوس . فقد كان هذا الرجل اسبانياً تربى في فرنسا ودرس الطب والفلك والاغريقية والعبرية وقاده سوء بخته ان يدرس اللاهوت . واهتدى في ابحاثه الطبية الى معرفة الدورة الدموية . ثم ذهب في ابحاثه الدينية الى ان عقيدة التثليث عند المسيحيين ؛ وهي ان الاب والابن والروح القدس إله واحد ، خطأ لا اصل لها . وبلغ من سذاجته وسلامة نيته ان كتب الى كالفن خطاباً يرجوه ان يأذن له بدخول جنيف لكي يلتقي به ويتناقش معه في موضوع التثليث

ولكن كالفن لم يبعث اليه برد ولا بدعوة . وكان سرفيتوس في ذلك الوقت في ليـــون بفرنسا وعرف عنه انكاره للتثليث فقبضت عليه محكمة التفتيش واودعته السجن ولكنه لعلة لا تعرف استطاع ان يهرب . وذهب سرفيتوس الى جنيف ولكن لم يمض عليه يوم حتى قبض عليه وشرع في محاكمته للهرطقة . ومضت على المحاكمة ٧٢ يومـــاً

قضى عليه في نهايتها بالاحراق . وفي هـذا الوقت عينه ارسلت محكمة التفتيش في ليون الى جنيف تطلب سرفيتوس الهرطيق لكي يحرق في ليون . ولكن كالفن رفض تسليمه وأراد أن يرى بعينه هذا الخصم العنيد يتقلى على الجمر

وأحرق سرفيتوس وهو لا ينزل عن كلمة واحـدة مما فاه به

ودوى في العالم عندئذ ان البروتستانتية لا تختلف عن الكاثوليكية بشيء وأنها تفتش ضمائر الناس وتضطهد وتقتل وأن محاكمها الدينية لا تمتاز عن محاكم التفتيش .

ولنودع الآن سرفيتوس وقاتله السافل المخلص كالفن، ولننظر بمثال آخر كيف يكون الدين اذا صار شريعة جامدة

* * *

لما انكسرت شوكة الكاثوليكية بظهور لوثر وخروجه على البابا صار الناس يتجرأون على مساءلة انفسهم وتفتيش ضمائرهم عن العقائد القديمة . وصاروا يجتهدون ويعلنون آراءهم . وحوالي سنة ١٥٢٠ ظهر أحد الالمان وأخـذ يدعو الناس الى وجوب تعميدهم مرة أخرى عندما يبلغون سن الشباب . لان التعميد في سن الطفولة ، كما هو المتبع بين المسيحيين ، لا يفيد الدخول في النصرانية اذ ان الطفل لا يعقل العقائد . فأذا أردنا ان نؤمن حق الايمان بالمسيحية ينبغي ان نعيد تعميدنا في الشباب . وكانت فرقته تسمى لذلك « المعيدين للتعميد »

وكان هؤلاء « المعيدون » يمتازون من سائر المسيحيين بالسير على حرف الانجيل ، يقولون بشيوعية المال والامتناع عن الحرب ونحو ذلك من الآراء المزعجة للدول والكنائس معاً . وفي سنة ١٥٣٤ كثر هؤلاء « المعيدون » في مدينة مونستر الالمانية فطردوا اسقف المدينة واستولوا على الحكومة وشرعوا ينفذون الانجيل والتوراة ويمضون أحكامها في الناس . فجعلوا الدين بذلك شريعة مدنية جامدة وافتتحوا للسكان المساكين عهد خراب لم يره العالم من قبل أو من بعد

وكان أكثر حماسة في مذهب « الاعادة » رجل خياط يدعى يوحنا كان يعمل للخياطة في النهار فاذا كان المساء انتفض نبياً ينطق بكلمات الانجيل والتوراة كأنهما لم ينزلا الا لاجله وحده ولا يفهمهما أحد غيره . فلما شرع المعيدون في تقليد الاحكام تناولوا كنائس الكاثوليك فهدموها ، وجعلوا أديار الرهبان مساكن للفقراء ، ثم جمعوا جميع ما في البلدة من الكتب عدا الانجيل والتوراة فأحرقوها كلها . ثم نظروا حولهم فأذا بالمدينة بعض جماعات لا تزال تصر على الايمان بغير ما يؤمن به هؤلاء المعيدون فلم يكن بأسرع من ان قبضوا عليهم وأغرقوهم أو قطعوا رؤوسهم

فلما زال من المدينة رجس الهراطقة ونجاسة الكتب ولم يبق بها سوى المعيدين الاطهار والانجيل والتوراة تفكر يوحنا الخياط فالتمع في ذهنه خاطر جليل وهو ان يحكم

مونستر كما كان سليمان الحكيم يحكم مدينة اورشليم. فذهب الى سوق المدينة واقام عرشاً ثم تبوأه . ثم قسم سكان المدينة اثني عشر سبطاً كما كانت اسباط اسرائيل . ثم تذكر ان سليمان الحكيم لم يقتصر على امرأة واحدة فأضاف زوجات اخرى على زوجتـــه . وكان لسوء حظه حسن الذاكرة جيد الفهم للتوراة فقادته ذاكرته الحسنة وفهمه الجيد الى انه كان لسليمان الحكـــيم سراري اخر غير زوجاته . فاتخذ الملك الخياط سراري اخرى غير زوجاته

وكانت الحكومة السابقـــة المطرودة قد جمعت جيشاً وحاصرت المدينة ومنعت عن مونستر التموين مما حولها فعم القحط . ولكن الملك لم يكن يبالي بذلك ، فكان يقعد كل يوم على عرشه في السوق ويأخذ من الغني ويعطي المحتاج ، ويمتشق الحسام لقتل المخالفين . ولما رأى القحط يزداد أمر الاهالي بزراعة الشوارع . ولكن المحاصرين لم يمهلوا السكان الى وقت الحصاد فانهم فتحوا المدينة بعد حصارهـــا بخمسة اشهر وقبضوا على الخياط ووضعوه في قفص وطافوا به ثم قتلوه اشنع قتلة

قتال الكاثوليك والبروتستانت

عندما نقرأ الآن الصحف نجد ان معظم الاخبار خاصة بالرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، وبأضرابات العمال والتعاون والنقابات ونحو ذلك . وكلها تدل على ان المسائل الاقتصادية هي الشغل الشاغل لاذهان الساسة الآن. ولكن الحال كانت تختلف عن ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فأن الذي كان يشغل الاذهان في ذلك الوقت هو المسائل الدينية وكانت مع ذلك تشغلها بحدة وشدة . فاننا نسمع الآن عن دسائس سياسية صحيحة او مزعومة وعن هياج للعمال يقتل فيه واحد او اثنان . ولكن في ذلك الوقت كانت تنشب الحروب فيقتل فيها الآلاف وتخرب البلاد فيهلك سكانها بالملايين وكل ذلك من اجل الدين ومن الكراهية المتبادلة بين الكاثوليك والبروتستانت

ولكن قبل ان نذكر الحروب المذهبية والتنافس الحربي بين الكاثوليك والبروتستانت يجب ان نشير الى ما كان من

نتائج التنافس السلمي بينها . فان كل طائفة صارت تغار على ابنائها وتخشى من تسرب العقائد الفاسدة الى نفوسهم، فكانت لذلك تؤسس المدارس لتلقين الصغار بالعقيـــدة الصحيحة . وظهرت فرقة اليسوعيين سنة ١٥٣٤ لهذا الغرض ، فانها عندما رأت نشاط البروتستانت خشيت ان تتضعضع الكنيسة القديمـــة امامهم . فتأسست لهذا السبب المدارس اليسوعية وكانت سنداً عظيماً استندت اليه الكاثوليكية. وحسب القارىء ان يرى الآن نشاط اليسوعيين في مصر وسوريا ولبنـــان ليقيس عليه نشاطهم في القرن السادس عشر في اوروبا . وحركة انشاء المدارس الحديثة ترجع الى ذلك العهد

ثم يجب الا ننسى ايضاً ان انشاء المدارس قد روج الطباعة ، لأن المطابع اصبحت تجـــد في الكتب المدرسية مادة تعيش منها . وهنا ايضاً يجب ان نضرب المثل بنشاط المدارس اليسوعية عندنا في طبع الكتب

هذه هي بركات المنافسة الدينية السلمية . اما نكباتها وكوارثها ففي الاضطهادات والمجازر والحروب . ولكن يجب ان ننبه القارىء الى انه كانت هناك اعتبارات اخرى في الحروب الدينية غير الدين

واول هذه الكوارث ارسال فيليب ملك اسبانيا جيشاً على هولندا لأخماد الحركة البروتستانتية . فقد قام في رأس فيليب انه حامي ذمار الكاثوليكيـــة. فبينما كانت محكمة

التفتيش في اسبانيا تطارد المغاربة كانت جيوشه تحرق المدن وتقتل الناس في هولندا . وكان ذلك سنة ١٥٧٢ وهي السنة التي ذبح فيها نحو ٢٥٠٠٠ بروتستانتي في فرنسا في عيد سان بارتلوميه

وانهزم فيليب في هولندا . فجهز اسطولاً لمقاتلة الانجليز والهولنديين معاً سنة ١٥٨٨ . وهنا يتضح للقارىء ان الدين كان تعلة وتكأة يتكىء عليها فقط ، ولكن القصد هو الفتح . وقد انهزم الاسطول الاسباني واخذت هولندا وانجلترا تستوليان على ممتلكات اسبانيا في آسيا

ولكن اعظم الحروب الدينية بعد الحرب الصليبية هي حرب السنين الثلاثين التي بدأت سنة ١٦١٨ وانتهت بخراب المانيا تقريباً سنة ١٦٤٨ . ففي هذه الحرب حاول الامبراطور فرديناند الثاني وهو من اسرة هابسبرج أن يمحو البروتستانتية من المانيا فأرسل عليها جيوشه تخرب وتدمر حتى يقال ان خمسة اسداس القرى والمدن الالمانية خربت وان الاهالي الذين كانوا ١٨ مليوناً نزلوا الى اربعة ملايين

ودخل جوستافوس ادولفس السويدي فدحر جيوش الامبراطور . ثم استحالت هذه الحرب الدينية الى حرب سياسية صريحة . فانضمت فرنسا الكاثوليكية الى السويديين البروتستانت لقتال الامبراطور . ودخلت الدنمارك

البروتستانتية الحرب ولكن لا لقتال الكاثوليك وانما لقتال السويديين البروتستانت . وكانت نتيجة هذا الخراب العظيم الذي نال اوروبا ان النـــاس عرفوا قيمة التسامح لا حباً فيه بل خوفاً من عواقب التعصب

جاليـــل

ولد جاليل سنة ١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢ . وحياته كفاح متصل مع القدماء الذين أخذ على عاتقه هدمهم ، ومع الكهنة الذين أوشكوا أن يجعلوا خاتمة حياته مثـــل خاتمة حياة برونو . ولكنه توقى هذه الخاتمة بأن رضي بأن ينكر ما قال

كان جاليل إيطالياً ، نشأ في اسرة شريفـــة وتربى التربية العالية التي كان يحصل عليها أبنـــاء الاشراف في ايطاليا . وقد أبدى من الذكاء والميل الى الدرس ما جعله استاذاً في جامعات ايطاليا في الرياضة والميكانيكا . وحدث في سنة ١٦٠٩ انه سمع بأن احد البلجيكيين قـــد اخترع زجاجة اذا نظر من خلالها جعلت الشيء البعيـد قريباً ، فأكب على درس هذا الاختراع واخترع التلسكوب وأخذ في درس الفلك . واخترع جاليـل شيئين آخرين كان لهما ايضاً اكبر الاثر في النهضة العلمية وهمـــا الميكروسكوب

والترمومتر . وربما لم يكن لهذه المخترعات في نظر الكهنة من القيمة في زمنه مقدار ما كان لتخطئته لارسطوطاليس في زعمه بأن الاجسام الثقيلة اسرع في السقوط من الاجسام الخفيفة . فقد كذب جاليل هذا الزعم واثبته بالتجربة بأن ألقى جسمين أحدهما خفيف والاخر ثقيل من قمة برج بيزا فوقع الاثنان في وقت واحد على الارض ، واستنتج جاليل ان سرعة السقوط انما تتوقف على بعد المسافة لا على ثقل الجسم . وكذب ارسطوطاليس ايضاً في زعمه بأن الارض مركز الكون ، وقد كان لارسطوطاليس من الحرمة في الكنيسة ما يكاد يشبه حرمة الانجيل

ونزع جاليل نزعة علمية قائمة على التجربة فاستعمل تلسكوبه الجديد في كشف السماء فعرف بذلك من النجوم نحو عشرة أضعاف ما كان معروفاً منها بالعين المجردة . واظهره تلسكوبه ايضاً على القمر فأخذ يرصده ووجد ان وجهه « يشبه جداً سطح الارض » فيه السهل والجبل. واكتشف اقماراً لجوبتر ثم استنتج ان هذا الكوكب يشبه الارض ، ووقفه تلسكوبه ايضاً على بقع الشمس التي لا نزال نحن حائرين في ماهيتها . وكانت كل هذه الابحاث تقوده الى ما يقوله الآن علماء الفلك وهو ان الكواكب والقمر قد تكون مأهولة بالناس مثل الارض . وهنا بدأ الكفاح بينه وبين الكهنة

وذلك ان الكتب المقدسة قـد جعلت الارض مركزاً

للخليقة ، ووجدت من ارسطوطاليس تأييداً لهــذا القول فأكبرت تعاليمه في هذه الناحية وعولت عليها . ولكن جاليل وجد ان هناك من الكواكب ما هو اكـــبر من الارض ، فاستنتج أن الحياة لا يمكن ان تكون امتيــازاً خاصاً بالارض وانها كما نشأت هنا يجوز أن تكون قــد نشأت هناك

وبلغ محكمة التفتيش في ايطاليا هذه الهرطقة الجديدة سنة ١٦١٦ فكتبت الى الكردينال بلارمين تأمره « ان ينهى جاليل عن هذه الاراء وفي حالة رفضه يؤمر بالكف عن تعليم هذه الآراء أو الدفاع عنها او حــتى البحث فيها . وفي حالة مخالفته يسجن »

وسكت جاليل ، فأن شبح النار التي اوقدت لبرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريباً ولم يكن جاليل يستمرىء نار الاستشهاد . فلــما كانت سنة ١٦٣٠ ألف كتاباً عن الفلك وذهب الى البابا يستأذنه في نشره. وكــان موضوع الكتاب المهم هو تعليل حركة المد والجزر بازدواج حركة الارض ، أي بدورانها حول نفسها وايضاً بدورانها حول الشمس . فأذن له البابا بنشر الكتاب بعد ان اشترط عليه جملة شروط كان اهمها أن يكتب في ختام الكتاب هذه العبارة « الله قادر على كل شيء ... وكل شيء ممكن لديه » وعلى ذلك فليس يمكن ان يقال إن المــد والجزر برهان ضروري للحركة المزدوجة للارض بدون تحديــد

قدرته على كل شيء »

وقبل جاليل هـذه الشروط ونشر الكتاب سنة ١٦٣٢ ولكن في السنة عينها هاج رجال الدين ومنعوا نشر الكتاب حتى مع وجود هذه الخاتمة التي يكذب فيها جاليل نفسه . وانعقدت محكمة التفتيش سنة ١٦٣٣ وحكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات وان يتلو المزامير السبعة مرة كل اسبـــوع وان ينكر كل ما قال

أما من حيث الانكار فقد كان جاليل سريعاً الى انكار ما يطلب منه لأنه كان يعرف انه بعد إيراد الادلة القوية على صحة نظريته ليس من المهم ان ينكر كل ما يُطلب منه . لأن الادلة هي سبيل الاقناع العلمي ، وهي كلها مثبتة بالكتاب . فهـــو يتقي غضب الكنيسة باللفظ ولكن يعتمد على التدليل العلمي في الاقناع

نزعة الشك

القرن السابع عشر هو قرن الشك نشأ فيه طائفة من العلماء والفلاسفة ينكرون طرق القدماء ويقولون بالتجربة ويدعون الى الشك في الحقائق المزعومة حتى تجرب والا فلا يجوز الايمان بها . وابطال هذه النزعة هم :

بيكون الذي ولد سنة ١٥٦١ ومات سنة ١٦٢٥
وديكارت الذي ولد سنة ١٥٩٦ ومات سنة ١٦٥٠
وسبينوزا الذي ولد سنة ١٦٣٢ ومات سنة ١٦٧٧
وهوبز الذي ولد سنة ١٥٨٨ ومات سنة ١٦٧٩
ولوك الذي ولد سنة ١٦٣٢ ومات سنة ١٧٠٤

وكل واحد من هؤلاء جدير بفصل قائم بنفسه في كتاب خاص بحرية الفكر . فقد عملوا كلهم لتحرير الفكر من التقاليد ومن السلطة . ولكننا سنقنع هنا بالاشارة المختصرة الى كل منهم وما يمتاز به من خدمة الحرية

وأول هؤلاء هو « فرانسيس بيكون » وهو رجل مثل

سميه القديم روجر بيكون انجليزي ، يقول بوجوب التجربة وعدم الاعتماد على شيء سواها من كتب القدماء . ووضع كتاباً سنة ١٦٢٠ أوضح فيه طريقته الجديدة . ومما قال فيها : « هناك من الاسباب ما يرجينا بأن نجد في بطن الطبيعة من الاسرار الكثيرة ما ليس له علاقة أو مشابهة بما نعرفه مما هو بعيد البعد كله عن خيالنا ومما لم يعرف بعد »

وفي سنة ١٦٢٧ وضع طوبى تخيل فيها أمثل هيئة بشرية تعيش وغايتها الاصلية الاكتشاف والاختراع

ولم يكن بيكون ينزع الى الشك في القدماء فقط وانما كان ينكر كل ما قالوه حتى تؤيده التجربة . وبينما كان علماء القرون الوسطى يقضون أعمارهم في درس القدماء والجدول المنطقي الذي يحوم ويدور حول الالفاظ والفروض كان بيكون يفكر في المستقبل ويضع الطرق التي يجب اتباعها لكي تتقدم العلوم ، وذلك بأن نذهب الى الطبيعة رأساً ونخطب اسرارها غير مقيدين بأية سلطة سوى سلطة التجربة التي تميز الفاسد من الصالح

ويقابل بيكون في انجلترا « ديكارت » في فرنسا . ومن اسماء مؤلفاته تعرف الروح الجديدة التي اخذت تتفشى في عصره وهي روح الشك . فله كتاب يدعى « قواعد لهداية العقل » وآخر يدعى « بحث في الطريقة » وآخر يدعى « مبادىء الفلسفة »

ويبني ديكارت فلسفته على الشك في كل شيء ولا

يؤمن ايماناً يقينياً بشيء سوى الفكر. ومن كلماته المأثورة : « اني افكر فأنا لذلك كائن ». وهو يشترط لاقامة بنـــاء الفلسفة الجديدة هذه القواعد الاربعة :

١) لا يصح قبول شيء عـــلى انه حق مالم تعرف ماهيته بغاية الوضوح حتى لا يمكن الشك فيه

٢) تقسيم المسائل الصعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الاجزاء ليسهل ادراكها

٣) يبدأ في الدرس مـن السهل البسيط الى الصعب المركب

٤) يستوعب البحث ويستقصي ويعمم النظر حـتى نتأكد بأننا لم ننس شيئاً

وهذا الكلام يبدو لنا هيناً ليناً ولكنه كـان في القرن السابع عشر ناراً وكبريتاً على رجال الدين. وكان من يتهم باعتقاد الديكارتية يعد كافراً لا غش فيه ، ولم يكن يقـل عمن كانوا يتهمون بالداروينية في القرن التاسع عشر. وقد امضى ديكارت جزءاً كبيراً من حياته في هولنـــدا ، ولا تعرف علة ذلك ، وربما كان استحسانه لها يرجع الى كثرة مطابعها وسهولة وسائل النشر فيها

على ان اقامته بهولندا ، وان لم يتعلم لغتها ولا وضــع كتاباً فيها الا بلغته الاصلية اي الفرنسية ، قد أفادت. فان اكبر حوارييه كان من يهود هولندا. وكان يدعى « باروخ سبينوزا »

ففي احد الايام وجدت طائفة اليهود المقيمة بأمستردام أن واحداً من ابنائها يجاهر باعجابه بديكارت وبأنه لا يؤمن بأشياء في التوراة والتلمود. ولم يستطع ربانية الطائفة أن يعاقبوه على ذلك لأنهم كانوا قد ارتكبوا جرماً شنيعاً منذ زمن قليل لم يكن قد نسيه بعد أهالي امستردام فلم يكونوا يرغبون في اثارة هذه الذكرى. فقد حدث ان احد اليهود البرتغاليين رحل الى هولندا وأبى كبرياؤه ان يخضع للربانية وان يواظب على الحضور للكنيس فجلده الربانية وأهانه رجال الطائفة. وفعلت هذه الاهانة في نفسه افاعيلها فانتحر

فلما وجد الربانية أن سبينوزا قد خرج على آراء التوراة والتلمود لم يلجأوا الى العنف في اسكاته خشية أن يتكرر حادث هذا اليهودي البرتغالي ويتسامع اهالي المدينة بما يفعلونه بأحرارهم. فتلطفوا وعرضوا عليه مبلغاً من المال ثمناً لسكوته، فأبى. وقنع الربانية بأن لعنوه لعنة ابدية في الكنيس وخلعوه من الطائفة. وحاول احد المتعصبين أن يغتاله فأخفق. وبقي سبينوزا بأمستردام لا يبالي بالتوراة ولا بخناجر الغادرين من ابناء طائفته

وأخيراً لجأ الربانية الى حكومة امستردام لكي تعاقب سبينوزا لأنه لا يكفر باليهود فقط بل بكل شيء، بالله واليوم الآخر. ويعلن شكوكه في اشياء مقدسة يؤمن بها النصارى واليهود معاً. وانعقدت محكمة نصرانية لمحاكمته على هذه التهمة العمومية ولكنها برأته في النهاية وقنعت

بان غادر المدينة مدة شهرين حتى تهدأ العاصفة

وغادر سبينوزا امستردام . وعرضت عليه مناصب للتعليم رفض قبولها لئلا يضطر الى تقييد حريته . وارتضى الفقر مع الدرس وأقام في لاهاي يصنع العدسات ويبيعها

ومن الصعب ان نلخص في كلمات فلسفة سبينوزا التي وضعها في مجلدات

ولكن يجب ان نقول انها لم تكن من نوع ذلك البحر الطامي للذي فاضت به كتب الجدل اللفظي العقيم، حتى كان مثل عمر الخيام يؤثر الخمر عليها ويرى ان السكر الحادث من هذه خير من السخف الذي تقول به تلك المجلدات الضخمة

كان سبينوزا يؤمن بان حدود الاديان أضيق من ان تسع الفكر الانساني وان هذا الكون المؤلف من ملايين النجوم بكواكبها هو وطن الانسان الحقيقي . وان الله متحد بهذا الكون وهو فكرته . وان حرية المرء لا تتحقق الا بالتخلص من شهواته واتحاده بالله

وفي هذا الوقت عاش « هوبز » وهو معلم انجليزي كان يعلم ابناء الاغنياء ويقضي معهم الاشهر العديدة في اوربا لأنه كان يجعل الرحلة من شروط التربية . وعرف في رحلاته هذه « جاليل » و « ديكارت » و « بيكون » ونزع نزعتهم وان كانت العلوم الرياضية تغلب عليه . ثم أوفى عليهم بدرسه الفلسفة السياسية ، ورأى من اضطهاد

طائفة « الطهريين » في انجلترا ما ألجأه الى ان ينفي نفسه في أوربا احدى عشرة سنة . فقد كان وضع كتاباً في الدفاع عن الملكية ، وكانت الملوكية في انجلترا في اسوأ حال ، اذ كان « الطهريون » قد قتلوا الملك شارل الاول .
وليس يمكن ان نقول ان هوبز دعا الى الحرية الفكرية بل هو دعا بعكس ذلك الى الخضوع لحكم ملك مستبد .
وانما أبحاثه في أصل الهيئة الاجتماعية ، وأن الانسان كان يعيش في فوضى وتوحش ، ثم اتفق الناس على ان يسلموا السلطة لواحد او أكثر من واحد لكي يحكمهم ، نقول ان هذه الابحاث فتحت باباً جديداً لتحرير الفكر بالبحث في أصل الحكومات وغايتها . وقد قبل البلاط الانجليزي هذه الآراء وكافأه عليها بمعاش سنوي مدى حياته . ولكن الكنيسة الانجليزية حكمت بتكفيره لآرائه الدينية واتهمته بالالحاد

وثم رجل آخر ولد في عام واحد مع سبينوزا ولكنه أوفى عليه في العمر بسبع وعشرين سنة حتى عاش اربع سنوات من القرن الثامن عشر . وهذا الرجل هو « لوك »

ولد لوك في انجلترا ، ووقع له في احد الايام كتاب هوبز في الدفاع عن الملكية فقرأه . وكثيراً ما تهدم الكتب الموضوعة في الدفاع عن بعض المبادىء هذه المبادىء نفسها ، لأنها تفتح ابواباً لم يلجها أحد من قبل ، وقد يلجها القارىء فتنفتح عينه لأشياء لم تكن مفتوحة لها من

قبل .. ولا يغني عندئذ دفاع المؤلف . فقد تجـــد فلاحاً ساذجاً يؤمن بالله ايماناً صادقاً يسلم فيه بربوبيته وقدرته ، وقد تشككه في دينه اذا انت حاولت ان تثبت له وجود الله بطريق المنطق. فان القارىء يجد ان هذا النوع يجرحها اكثر مما يؤيدها .

والعادة ان من ينزع الى الجرأة في نقد الحكومة لا يمكنه ان يتخلى عن هذه النزعة في نقد الدين أو الهيئـــة الاجتماعية أو الاخلاق او غير ذلك . وقد قرأ لوك وهو طالب في اوكسفورد كتاب هوبز عن الملكية ورأى كيف ان « الطهريين » قد قتلوا الملك شارل الاول سنة ١٦٤٩ فتساءل هو ؟ اذا كان للناس الحق في ان يخلعوا ملوكهم المستبدين ويقتلوهم ويمحوا استبدادهم ، فـــلم يرضون باستبداد الكهنة ؟ ولم لا يختار الناس الاديان التي تقرهم ضمائرهم عليها ؟

ولكن لوك وجد ان الجو لا يلائم هـــذه النزعة وان رجال الدين يتهامسون بأنه ملحد . فرحل الى امستردام ووضع هناك « خطابات عن التسامح » قال فيها انه لا حق للحكومة بأن تدخل في ضمير المرء وتملي عليه دينه ، وانها انمـــا أقيمت برضى الناس واتفاقهم لحماية الافراد وأمنهم . وكما انه لا يجوز لها ان تعين ما يأكله الناس وما يشربونه كذلك لا يجوز لها ان تعين لهم المذهب الذي يؤمنون به . وقد كانت اوربا قد تفشت فيها المذاهب ،

فقال لوك ينتقد اشتغال الحكومات بالاديان ووجوب تركها الناس احراراً :

« اذا كان للحكومات الحق بأن تملي على الناس كل ما يختص بسعادة أرواحهم المستقبلة فان نصف الناس قــد حكم عليه منــذ الآن بالهلاك الابدي . لأنه لما كان من المستحيل ان يكون المذهبان صحيحين فمن المعقول ان جميع من ولدوا في ناحية ما سيذهبون الى السماء في حين ان من ولدوا في الناحية الاخرى قــد قضي عليهم بالذهاب الى جهنم . وبهذه الطريقة يتقرر مصير الانسان ونجــاته حسب البقعة الجغرافية التي اتفق ميلاده فيها »

ومنذ ذلك الوقت أخذت الدعوة الى التسامح تزداد وتقوى ويكون لها دعاة يجاهرون بها مثل فولتير وتوم بين ويستطيعون انــكار التقاليد مجاهرين بذلك لا يخشون بطش الحكومات ولا الكهنة

جلالة الملك فولتير

ولد فولتير سنة ١٦٩٤ ومات سنة ١٧٧٨

يحكى عنه أنه قال مرة : « وما عليّ اذا لم يكن لي صولجان ؟ أليس لي قلم ؟ »

وقد حق لفولتير أن يفاخر بقلمه كما يفـاخر الملك بصولجـانه لانه اذا كان للملوك ملك فلفولتير ملكوت . واذا كان لكل ملك رعية مؤلفـة من جميع الطبقات فلفولتير رعية راقية مؤلفة من رجـال الذهن في جميع انحاء العالم . واذا كانت الملوك تتفاضل بالاثر النافع الذي يتركه حكمها في رعاياها فأي ملك استطاع ان يؤثر في أذهان الناس بمقدار ما أثر وما سيؤثر فيها فولتير ؟

اجل . إن هناك ملوكية لا تتبوأ العرش المذهب ولا تعقد عـلى الرأس الاكليل المرصع . تلك الملوكية تكون بسعة الثقافة التي يشرف صاحبها على العالم ، ماضيه ومستقبله ، يرسم له مثله العليا ويوجه خطاه نحوها . فقادة العـالم

الحقيقيون هم فلاسفته وعلماؤه الذين يرسلون صوتهم الينا عبر القرون فنسمع لهم ونأتمر بأمرهم

وفولتير واحد من هؤلاء الملوك تناول صولجانه فألف به نحو سبعين كتاباً كلها في الدفاع عن رعيته ، أي عن رجال الذهن والمفكرين . ولقد كتب في التاريخ ولكنه لم يبرز على أحد من المؤرخين ، وكتب في الادب ولكن بين الادباء من يبذه . ولكن له فضلا واحـــداً وهو أنه أرصد قلمه وماله وقوة جسمه الضعيف وجاهه وكل ما يملك في العالم لأثبات حق كل انسان في الحرية الفكرية ولمكافحة الظلمة والمتعصبين والاغبياء

ولعلك أيها القارىء قـــد سمعت عن « كاتو » ذلك الروماني العنيد الذي قضى أكثر من خمسين سنة وهو يصبح ويمسي فيقول للرومانيين « يجب ان تدمر قرطاجنة »حتى رأى بعينه تدمير قرطاجنة وزالت دولة الفينيقيين الـــتي كانت تخيف رومية . فهذا فولتير قد فعـــل فعله وقضى عمره وهو يصيح بالعالم الاوروبي عامة وبفرنسا خـــاصة « اسحقوا اهل الخزي » وأهل الخزي والعار هم الذين يضطهدون الاحرار

والعجب في فولتير هذا أنه حارب الكنيسة الكاثوليكية وهدم سلطانها على الاحرار وهو مؤمن شديد الايمان بالله. بل لعل ذلك لم يكن عجيباً . ولم يكن ايمانه ايماناً فلسفياً ، بل كان ايمان الهوى والعاطفة . حتى انه لما قيـــل له ان

جبال الألب كانت في تاريخها الغابر تحت الماء بدليـــل أصداف المحار المتحجرة فيها رفض أن يصدق هـــذا القول لانه ينافي وجود عناية إلهية ترعى خـــلائق اليابسة وخلائق الماء . وحدث في حياته زلزال لشبونه ودمرت المدينة فتزعزع ايمانه قليلا، ولكن هواه تغلب عليه وعادت اليه عقيدته في الله . وانما كان فولتير يكفر بالخرافات التي ترويها الكنيسة المقدسة وكان اكباره لله يدعوه الى الكفر بهذه الكتب

وكانت اوروبا الشمالية في زمنه قد تحررت من قيود التعصب وخفت فيها وطـــأة الاضطهاد أو زالت . وزار أيضاً المانيا واختلط بفردريك الثاني فرأى فيه ملكاً متسامحاً لا يبالي أي دين يؤمن به رعـــاياه ما دامـــوا يدفعون الضرائب ويلتحقون بالجيش . فعزم عـــلى محو التعصب من فرنسا

وكان برنامجه مزدوجـــاً وهو أن يؤلف الكتب في مكافحة التعصب وأن يهيء وسائل الدفاع للمنكوبين الذين يحاكمون من اجل عقائدهم . ونحن هنـــا سنبدأ بالجزء الاول من هذا البرنامج وسنقصر مهمتنا فيه عـــلى نقل اقوال فولتير . قال في كتابه « قبر التعصب » :

« أن من يتلقى دينه بلا فحص يكون كالثور يتقبل النير بلا معارضة »

ويقول في خطاب لولي عهد بروسيا :

« ان الدجاجلة هم وحدهم الذين يجزمون ويقطعون ، فاننا لا نعرف شيئاً عن المبادىء الاولى ، فمن الشطط ان نعين ماهية الله أو الملائكة أو العقول وان نعرف بدقة علة خلق الله للعالم ، في حين اننا لا نعرف لماذا نرفع ذراعنا كلما شئنا . وليس الشك مما يرتاح له المرء ولكن اليقين مدعاة الضحك والسخرية »

ويقول في كتابه « التسامح » :

« لا يحتاج المرء الى براعة فائقة أو فصاحة نادرة لكي يبرهن على لزوم التسامح بين المسيحيين ، بل بين جميع الناس على السواء . وقد تسألني الآن : هل يجب عليّ ان اعتبر التركي أو الصيني أو اليهودي أخاً لي ؟ أقول : أجل ، أليس كلنا ابناء اب واحد وخلائق رب واحد ؟

« وقد تقول : هؤلاء الناس يحتقروننا ويعتقدون اننا وثنيون . فأقول : اذا كان الامر كذلك فأني أخطئهم وأظن أني أدهش المسلم أو البوذي وأكسر من شرة عناده اذا انا قلت لهما ما يلي :

« هذه الكرة التي نعيش عليها ليست سوى نقطة تسير في الفضاء مثل سائر الكرات العديدة الاخرى . والانسان الذي يبلغ طوله خمس اقدام انما هو شيء حقير في هذا الكون . وهناك في جنوب افريقيا أو جنوب آسيا انسان لا يكاد يرى يقف ويقول للناس : اسمعوا ، ان خالق هذه

العوالم قد أوحى الي ، فعلى هذه الارض ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ نملة صغيرة مثلي ولكن ليس عزيز عند الله سوى جحري ، اما سائر الاجحار فالله يكرهها ولن يكون بينهـا سعيداً سوى جحري

« وعندئذ يسألونني من هو هذا الابله الذي نطق بهذا الهراء فأقول لهـم انهم هم أنفسهم يقولون ذلك . ثم أهدىء غضبهم »

ويقول ايضاً :

« لكي تدعي حكومة ما الحق في ان تعاقب الناس على اغلاطهم يجب ان تتخذ هذه الاغلاظ هيئة الجرائم .وهي لن تكون جرائم حتى تحدث القلاقل بين الهيئة الاجتماعية وذلك بأن تؤدي الى التعصب . وعلى ذلك يجب على الناس أن يتجنبوا التعصب لكي يستحقوا التسامح »

وايضاً : « اذا انت أصررت على ان الكفر بالدين السائد جريمة فانك تؤثم المسيحيين الاولين آباءك وتبرىء اولئك الذين تنقم منهم اضطهادهم لهم »

ولننظر الآن الى الجزء الآخر من برنامجه وهو الدفاع عن المنكوبين الذين نزل بهم اضطهـاد رجال الدين والحكومات

ففي سنة ١٧٦١ حدث انه كان يقيم في مدينة تولوز رجـل بروتستانتي يدعى كالاس له حانوت بالمدينة . وكانت تولوز مشهورة بتعصبها تحتفل بعيـد مقتل سان

بارتلوميه كل عــام . ومع ذلك استوطنها كالاس هو وعائلته وكان في جرأته هذه متهوراً قد أفرط في التفاؤل

وحدث ان احد ابناء كالاس تمذهب بالكاثوليكية وأعلن الاب أمام جيرانه انه لا يعارض أبناءه في اختيار أي مذهب يؤمنون به . ثم بعد ذلك حدث حادث آخر اخطر من هذا . وهو انه كان لكالاس ابن آخر يدعى مرقس يبلغ الثامنة والعشرين وكان يرغب في دراسة القانون ، ولكن البروتستانت كانوا محرومين من هذه الميزة ، وكان هو بروتستانتياً متحمساً لمذهبه فلم يقــدر على النزول عنه والتمذهب بالكاثوليكية كما فعــل اخوه . وأدى به هذا الصراع بين مصلحته وبين ضميره ان اختل توازنه الفكري فصار يخرج منفرداً ويسير في الحقول ويتكلم عن الانتحار ويمتدحه . وقد حفظ الاشعار التي يقرلها « هاملت » عندما كان يمتدح الموت . فلم يسأله احد من اخوته أو والديه الى اين يذهب لأنهم تعودوا منه الخروج والسير على انفراد بعد العشاء .. ولكن بعد ساعات وجد كالاس ان ابنه قد خنق نفسه بحبل معلق من سقف الباب . وكان قد خلع ملابسه ووضعها قريباً منه وهي مرتبة مطبقة

وكانت العادة ان المنتحر يحرم من صلاة الموتى ويجر على وجهه الى خارج المدينة كي تأكه الوحوش والجوارح . وخشي كالاس هذه الفضيحة فوقف هو واعضاء العائلة يتكلمون في كيفية دفن الجثة بدون التعرض لهذا العار .

ولكن احد الجيران شعر بالحركة وسمع رشاشاً من الكلام يدل على الحادثة فأبلغ الشرطة

وقبض الشرطة على جميع افراد العائلة ، وتفشت في البلدة اشاعة مؤداها ان عائلة كالاس قد قتلت الشاب البريء الطاهر مرقس لأنـــه أراد ان يدخل في حظيرة الكاثوليكية ويفر من رجس البروتستانتية الذي يعيش فيه أبوه واخوته . وأصبح مرقس شهيداً على الرغم منه ، وحملت جثته وبقيت في قاعة المدينة العمومية ثلاثة اسابيع والناس يزورونها ويترحمون على هذا المسكين الذي ذهب ضحية ايمانه ، والكل مجمع ان الاب قد خنق الابن ، مع ان الأب كان عمره ٦٣ سنة وكان عمر الابن ٢٨ سنة

وبعد خمسة أشهر تألفت المحكمة لمحاكمة العائلة ،وحكمت على كالاس بالتعذيب ثم بتمزيقه على الدولاب . وأدخل غرفة التعذيب وعلق بعصبيه من سقف الغرفة حتى صار على ارتفاع متر من الارض ثم جذب الى الارض من رجليه حتى خرجت رجلاه وذراعاه من محاجرها ، وأنزل بعد ذلك ، ثم أجبر على ان يشرب مقداراً كبيراً جداً من الماء حتى صار جسمه ضعفي ما كان قبلاً . كل ذلك وهو يُسأل عن الجناية فينكرها . وأخيراً حمل الى مكان القتل فقطع الجلاد رجليه ويديه . وعندئذ جاءته أبالسة من بني آدم يقال لهم قضاة يسألونه هل ارتكب الجنايـــة فينكر ، حتى ضج القضاة من عناده وأشاروا على الجلاد

بخنقه ، فاستراح المسكين من شياطين الأنس

وكانت املاكه قد استصفيت وخرجت ارملته لا تجد القوت . وأخذ اولاده فوزعوا على الاديار لكي ينشأوا كاثوليكيين وتزداد بذلك رعية البابا

وكان فولتير مقيماً بجنيف فسمع بخبر هذه الكارثة التي نزلت بأسرة كالاس . فاستقصى وتحرى فوجده صحيحاً بكل فظاعته . فلم يعد يفكر في شيء في هذه الدنيا غير هذه الكارثة

رأى فولتير ان وقوع هذه الكارثة اعتداء على مملكته ، فقد كان أميناً على حرية الفكر يدافع عنها في جميع انحاء اوربا . فأخذ يكاتب جميع من لهم نفوذ في فرنسا لاعادة المحاكمة . وحمل الارملة المولهة الى باريس حيث عين لها محامياً مشهوراً ، وجمع الشهود من الجيران وانفق من ماله بـلا حساب . وكاتب ملك انجلترا وامبراطورة روسيا وأجبرهما على التبرع بشيء من نفقات الدعوى . ثم التفت الى فرنسا فعبأ الرأي العام وجند قلوب الامة بكتاب جمع فيه الادلة التي تبرهن على الظلم الذي وقع بهـذه العائلة . ونشره غفلاً من اسم المؤلف

وبعد تسعة اشهر وصوت فولتير تتجاوب أصداؤه القوية في جميع انحاء اوربا « اسحقوا أهل الخزي » رضيت الحكومة الفرنسية باعادة المحاكمة . ومضى عـام آخر نطقت في نهايته المحكمة ببراءة كالاس الذي قتله قضاة

تولوز بعد ان انزلوا بجسمه الضعيف صنوفاً من العذاب . وفصل هؤلاء القضاة السفلة من مناصبهم ، وتضمن الحكم نصيحة خفيفة الملمس لأهل تولوز بأن مثل هذا الحادث يجب ألا يتكرر . وبعد ذلك وهب الملك هذه العائلة التي أشقاها التعصب هبة صغيرة من المال

هذه قضية واحدة من اكثر من عشر قضايا تطوع لها فولتير ودافع فيها بقلمه وماله عن المظلومين المضطهدين . ومات وهو في الرابعة والثمانين من عمره ، مهدود القوى قد أقعـده المرض وألزمه الفراش . ومع ذلك كانت له قضية يدافع فيها عن شاب قد اتهم بتحطيم صليب وبحيازة المعجم الفلسفي وبأنه لم يركع عند مرور موكب ديني . وكان الشاب قـد احرقته المحكمة وانتهت منه بعد ان قطعت لسانه بالحديد المحمي ثم قطعت ذراعه اليمنى . ثم أحرقته هو والمعجم الفلسفي . وهذا المعجم من مؤلفات فولتير . ولكن فولتير نبش القضية وأخذ يعرض تفاصيلها قطعة بعد قطعة على الرأي العام الفرنسي حتى يقف الناس على هذا الظلم الصارخ الذي يوقعه الاغبياء بالاذكياء ، مستعينين في ذلك بالقوانين والظلام

وهكذا انتهت حياة فولتير وهو في ميدان المعمعة ، بعد ان أبلى أشرف بلاء في سبيل الحرية الفكرية

وهذا الرجل المكافح المقاتل من أجل الحرية كان مع ذلك يندى قلبه بندى المروءة اذا أحس بضعيف يتألم أو

اذا مدت اليه يد المعدم تطلب الصدقة . فقد ذكرت عنه وكيلة بيته أنه غضب مرة من خادمه وأمر بطردهــا . ولهذا الغضب حكاية مضحكة تدل عـــلى مزاجه الفرنسي وزهوه . فقد كان عنده عقاب نحيل قد بان عظمه فسمع فولتير الخادمة تقول انه يحسن بهذا العقاب أن يموت لأن هزاله قد بلغ منه . وكان فولتير نفسه من حيث نحول الجسم وهزال الاعضاء موميــاء مجففة . ووقعت اشارة الخادمة منه وظنها تلمح الى شخصه . فأمر بطردها . ولكن وكيلة البيت رفضت ، واعتمدت في ذلك عـــلى انه اذا سألها عن علة بقاء الخادمة فانها تقول انها طردتها ولكنها لما لم تجد عملا تعيش منه عادت اليهم . وعندئذ يفيض قلب فولتير بما طبع عليه من بر فيسكت لأنه لا يطيق أن يسمع أن أحداً يقول انه لا يجد ما يقتات به

وحدث أنه وقع عـــلى خيانة اثنين في منزله ونزل كلاهما على الارض يركعان له حتى يغفر لهما هذا الذنب وهما يرتجفان من العقاب . فركع هو في الحـــال على الارض أمامهما وانهضهما وعيناه تفيضان بالدموع وهو يقول لهما الا يركعا الا لله وحده

أجل . انه يمثل هذا الرجل يتطور الناس

الثورة الفرنسية

أخبر الناس بالثورات وأعرفهم بطبيعتها هم الروس ولذلك يجب ان نعرف الثورة هنا بقلم أحد كتاب الروس الذي يقول عن تجربة واختبار :

« الثورة هي قلب سريع يحـــدث في سنوات قليلة للمؤسسات التي امتدت جذورها في التربة عدة قرون والتي يبدو لمن ينظر اليها أنها ثابتة لا تتزعزع حتى ان أشد المصلحين حماسة لا يكاد يجسر على مهاجمتها بالكتابة . وهي سقوط وتهدم يحدثان في فترة صغيرة لجميع ما كان يعد الى ذلك الوقت أصلا لحياة الامة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية »

وهذا التعريف ينطبق على الثورة الفرنسية كل الانطباق. وليس من شأننا هنا أن نذكر تاريخ الثورة ،وانمـــا نحن نمس منها ماله علاقة بحرية الفكر التي هي موضوع هذا الكتاب . ولهذه الثورة ارهاصات أنبأت عنها وكان يمكن

الحكيم ان يتوقع الثورة منها لولا غشاوات الطمع والكسل والجهل والجبن التي كانت تحجز نور الحقائق عن عيون الطبقة الحاكمة في فرنسا.

فقد قضى فولتير حياته وهو يهدم سلطان التعصب ويشنع على استبداد الحكومة وظلمها . وقضى روسو حياته وهو يبدي ويعيد في نظرية واحدة وهي أن طبيعة الانسان طيبة وانما أفسدها الحكومات والشرائع . وكان مونتسكيو في «روح الشرائع» يدعو الى اصطناع الدستور الانجليزي بدلا من الانظمة الفرنسية البالية . وكان رجال «الموسوعة» لا يفتأون يذكرون في كل حرف من حروف المعجم أساليب الظلم التي تنزل بالناس من اشرافهم وامرائهم كما يذكرون الاساطير الأولى التي يؤمن بها الناس ويحسبونها من الدين . فكتب هؤلاء الكتاب هي خميرة الثورة التي هيأت لها تربتهم وزودتها بما يخصبها

وليست الثورة الفرنسية فرنسية الا بالاسم ، أما حقيقتها فعالمية . وأنت ايها القارىء المصري لو قرأت الدستور الذي وضع لمصر في سنة ١٩٢٣ لوجدت عليه مسحة «حقوق الانسان» التي أعلنتها الثورة سنة ١٧٨٩ ووجدت فيه الفاظاً وعبارات تنم على هذا الاصل . وكذلك الحال في سائر دساتير اوروبا فانها مشبعة بروح الثورة الفرنسية

وفي الثورة الفرنسية عقل وهوس

أما العقل فهو هذا :

١) ذهب الرعاع سنة ١٧٨٩ الى سجن الباستيل فهدموه . وكان الناس يسجنون في هذا السجن بلا محاكمة وقد لا يعرفون احياناً التهمة التي سجنوا من أجلها : وبهدم الباستيل وخنق وكيله انهدم ركن كبير من الاستبداد

٢) اجتمعت الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ وأعلنت حقوق الانسان فقضت بذلك على الحكم الاقطاعي . واهم ما في هذه الحقوق (١) ان جميع الناس يستوون أمام الشرائع (٢) لا يمكن تبرير امتياز فرد على فرد الا لمصلحة المجموع (٣) لكل فرد ان يشترك بنفسه أو بنائبه في وضع الشرائع (٤) يجب ان تحمل الاعباء الوطنية بنسبة قدرة الفرد على حملها (٥) لا يسجن أحد ألا بحكم محكمة طبقاً للقوانين (٦) حرية اختيار الدين وحرية الخطابة والصحافة من حق كل وطني

أما الهوس فهو هذا :

الغاء التقويم المسيحي وابتداء تقويم جديد من السنة الاولى من الثورة ، والغاء الاعياد المسيحية ، وتقسيم الشهر الى ثلاثة اقسام كل قسم عشرة ايام ، والغاء عبادة الله واختراع عبادة جديدة « لربة الذهن »

وكل هذا الغلو والشطط يرجع الى ما لاقاه الفرنسيون قبيل الثورة من استبداد رجال الدين والحكومات

ففي سنة ١٧٩٤ حملت راقصة جميلة الى كنيسة نوتردام وألبست لبـــاساً تشبه فيه ربة الذهن الاغريقية ثم عبدها الباريسيون في مكان أمامها بالكنيسة سموه «معبد الفلسفة»، وكانت النية على ان يقام تمثـــال لربة الذهن من المرمر ولكن نوبة الهوس انتهت قبل ان يشرع في صنع التمثال

ومضى الباريسيون على هذا الهوس نحو ستة اشهر أعلن في نهايتها اي في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ ان الله قد رد باحتفال رسمي الى مكانه في كنيسة نوتردام

ويجب ان نذكر من هوس الثـــورة أيضاً أن ١٤٠٠ رأس اطاحتها المقصلة بلا ذنب أو ذنوب طفيفة

ولكن بعد كل ذلك هدأت العاصفة وعرف النـــاس قيمة التسامح وصار لأحرار الذهن أن يعيشوا ويجاهروا بآرائهم امام المسيحيين او اليهود

تـــوم بين

ولد تـــوم بين بانجلترا سنة ١٧٣٧ ومـــات بامير كا سنة ١٨٠٩

ويعرف «بين» بكتابين أولها « الفهم » وثانيها « عصر العقل » . وكلاهمـــا يعمل للحرية الفكرية . فالاول حملة عنيفة على مبدأ الملوكية ودعوة الى الامـــير كيين لكي ينفصلوا من انجلترا ويؤسسوا جمهورية لا شأن لمبدأ الملوكية الوراثي فيها

وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في الثورةالامير كية . أما الثاني فحملة عنيفة أيضاً على الاديان

وله كتاب ثالث أقل اهمية عنوانه « حقوق الانسان » وضعه في الدفاع عن الثـــورة الفرنسية وعن المبادىء الجمهورية.وقد حاكمته المحاكم الانجليزية لحملته عـــلى الملوكية . وهذه بعض العبارات التي حوكم من اجلها :

« كل حكومة وراثية تكون بطبيعتها ظالمة »

وأيضاً : « لن يكون الوقت بعيداً عندما تضحك انجلترا من نفسها لاستجلابها واحداً من هولندا أو هانوفر أو زل أو برونزويك (يقصد ملوك انجلترا الاجانب) تنقده في العـام مليون جنيه وهو لا يفهم شرائعها ولا لغتها ولا مصالحها ، وقد لا يجد من كفايته ما يستطيع أن يؤتمن به على ان يكون شرطياً في احدى القرى »

وقد حكمت المحاكم الانجليزية على «بين» باهدار دمه ، ولكنه كان في ذلك الوقت في فرنسا

اما في حملته على الاديان فكان موقفه فيها يشبه موقف فولتير

كان يؤمن بالله ولكنه لهذا الايمان نفسه كان يكبره عن أن يكون هو صاحب الاساطير التي تعزى اليــه في بعض الكتب . فهو يقول : « عندما نتأمل عظمة هذا الكائن وهو يتسلط على هذا الكون الهائل الذي لا يكشف منه فهم الانسان الا جزءاً صغيراً نشعر بالخجل عندما نجد أن قصصاً سخيفة تنسب اليه ويقال عنها انها كلمة الله »

ويمكن ان يقال أنه كان يؤمن « بدين الانسانية » أي الدين الفلسفي الذي يؤمن به صاحبه مضطراً بدواعي نفسه لا بأوامر سلطة خارجية . وكان يقول ان لهذا الدين عدوين هما الالحاد والتعصب

وفي الوقت الذي قدر فيه الوطنيون الفرنسيون خدمته للثورة وانتخبوه عضواً في الجمعية ، وهو لا يدري كلمة من الفرنسية، سقطت منزلته عند الامركيين حتى أنه عندما عاد اليهم اجتنبوه واتهموه بالالحاد

٢ — اقبل العلماء على درس العلوم بشراهة وادمان ، وكان للبيولوجية ، أي العلم الخاص بالاحياء ، وللجيولوجية أي العلم الخاص بتكوين قشرة الارض والاحافير ، أثر خاص في ترويج الحرية الفكرية

٣ — تحول درس كـل الكتب المقدسة من الايمان والتسليم الى النقـد والتمحيص بمقابلة التواريـخ والتنقيب عن الآثار .

وفي ما يلي سنلقي نظرة سريعة عـلى حوادث القرن التاسع عشر التي تمس الحرية الفكرية ، أو تتعلق بهـا بأدنى علاقة

ففي اوائل القرن نجد ان لابلاس الذي مات سنة ١٨٢٧ يعرض على نابليون نظرية يقول انه يمكن ان يستغنى بها عن فرض وجود إله خالق . ولكن نابليون ، وان كان قد تشبع بروح الثورة الفرنسية ، فانه عندما رسخت أصول الامبراطورية أصبح ينظر للدين نظر اصحاب الدول والسلطان. ولذلك رد لابلاس أقبح رد . ولكن اقـتراح لابلاس يدل على الروح التي سرت بين رجال الذهن في في فرنسا والتي بعدت بعـداً عظيما عما كان سائداً فيها ايام فولتير

وفي سنة ١٨٦٣ ألف ليال كتاب « قدم الانسان » أوضح فيه ان الانسان قديم يرجع تاريخه الى مئات الالوف من السنين ، كما تثبت ذلك الجيولوجية . وقد كان أبعد

الناس تقديراً لتاريخ الانسان على الارض حسب ما تقوله التوراة لا يبعده اكثر من ٦٠٠٠ سنة

وفي سنة ١٨٥٩ ثم في سنة ١٨٧١ وضع داروين كتابيه عن نظرية التطور : الاول في اصل الانواع والثاني في اصل الانسان . ولم يكن أحد يشك في ان نظر داروين يختلف عن النظر الديني اختلافاً في الاصول والمبادىء حتى قال الاسقف ولبر فورس : « ان مبدأ الانتخاب الطبيعي يخالف كلمة الله »

وفيلسوف التطور هو بلا شك هربرت سبنسر . فان داروين قصر نظره على تطور الاحياء الذي يؤدي اختلاف الافراد فيها الى ظهور السلالات ، ثم يؤدي اختلاف السلالات فيها الى ظهور الانواع . ولكن سبنسر أخذ النظرية وعممها على العمران والعادات والاخلاق وصبغ عالم المفكرين في اوربا كلها بهذه الصبغة . ومن الحق ان نقول الآن ان تعميم نظرية التطور انما يرجع الى علماء الانجليز ، وخاصة الى داروين وسبنسر . وما هو ان عمت النظرية حتى كان علماء آخرون يطبقونها على الديانات نفسها ويرصدون حياتهم للبحث عن أصل السحر والعقائد الدينية القديمة ، مثل التثليث عند المصريين القدماء وغيرهم ، ومثل نظرية الفداء وتجسم لحم الآلهة في الغلات الزراعية ونحو ذلك . وكتاب فريزر في هذا الموضوع المسمى « الغصن الذهبي » من أفضل وأعمق نتائج هذا الدرس

وكان لتقدم العلوم البيولوجية أثر كبير في زعزعة العقائد الموروثة لأنه ظهر منها ان جسم الانسان بعيد عن الكمال بادي النقص والخلل ، بما ورثه من اعضاء كانت تنفعه وهو بعد في طور الحيوان واصبحت الآن تؤذيه مثل الزائدة الدودية والقولون وغيرهما حتى قال هلمهولتز العالم الالماني الذي مات سنة ١٨٩٤ عن عين الانسان « لو ان أحد صناع النظارات أرسلها الي باعتبارها آلة لرددتها اليه ووبخته على عدم عنايته بعمله وطلبت منه رد نقودي »

والقرن التاسع عشر حافل بأسماء العلماء والفلاسفة الذين حاولوا تفسير الكون بدون الرجوع الى العقائد مثل شوبنهور وكونت وسبنسر. وفي اواخر هذا القرن نظمت في انجلترا « جمعية الدهريين » وشرعت تطبع الكتب العلمية والتاريخية . ويقال انها قد باعت من مؤلفاتها نحو ثلاثة ملايين نسخة كلها في مقاومة الاديان

وقلما نجد في القرن التاسع عشر حادثة اضطهاد لحرية الفكر تستلفت النظر . فان الحكومات أخذت أمام حملة العلماء تنكفىء وتزدجر . وكانت الاضطهادات السابقة والحروب الدينية لا تزال ماثلة بنتائجها المرعبة وعظاتها البالغة . ولكنا مع ذلك نسمع عن حادثة لو انها ذكرت قبل هذا القرن لعدت طفيفة ولكنها كانت خطيرة في وقتها للتقدم الذي احرزته الحرية الفكرية ، ففي سنة ١٨٨٨ انتخب رجل دهري يدعى « برادلف » عضواً في مجلس

العموم البريطاني وكانت العادة ان يقسم بالله يمين الولاء . ولكن برادلف لم يكن يؤمن بالله ورفض ان يقسم هــذه اليمين فحبسه البرلمان ثم ألغى انتخابه . فعاد الى دائرته فانتخبته ثانياً فخضع البرلمان عندئذ وأذن للدهريين في أن يقسموا اليمين التي يشاؤونها

وكانت العــادة ان ملوك انجلترا لا يتوجون إلا اذا سبوا البابا والكاثوليك ، فلما ارتقى ادوار السابع محا هذا السباب من حفلة التتويج . وكان الكاثوليك يحرمون من مناصب الدولة في انجلترا فألغي ايضاً هذا التحريم . وكان الزواج يعقد في الكنائس على ايدي الكهنة ولكن الامم الاوروبية قررت اعتباره عقداً مدنياً . وما جــاء القرن العشرون حتى أخذت أمم كثيرة تفصل الكنيسة عن الحكومة . وبعضها مثل فرنسا عمد الى الاضطهاد فاستصفى أمــلاك الكنيسة ومنع التعليم الديني في المدارس

الجـزء الثالث

فى تبرير الحرية الفـكرية

في تبرير الحرية الفكرية

النهضة الفكرية الحاضرة في مصر ترجع الى عهد اسماعيل ولا يكاد يكون لها علاقة بنهضة محمد علي . إما لأن نهضة محمد علي كانت ناقصة في ذاتها ، كسقط الاجهاض لم تستقر فيها عوامل النمو قائمة على افراد من الشركس والاتراك .واما لأن عباس وسعيد قد قطعا الصلة بين نهضة محمد علي وبين نهضة اسماعيل . وسواء أصح هذا أم ذاك فان الواقع اننا نرى اسس النهضة الحاضرة تقام في عهد اسماعيل . ففي عهده ظهرت الصحف . وكان الشيخ محمد عبده والافغاني يتكلمان عن اصلاح الازهر والحكومة

وكلا الرجلين جدير بالذكر في كتابنا هذا . فقد حاول كل منهما أن يوجد اتصالا بين الشريعة والحكومة . ويبدو من ذكريات رينان المطبوعة أن الافغاني كان ملحداً ولكن الذين عاشروه في مصر يعتقدون غير ذلك . وقد

كتب هو نفسه عن نظرية داروين ما يثبت نظره الديني المحض . اما الشيخ محمد عبده فمعروف في مصر بجهاده للحرية ، وقد حاول اصلاح التعليم الديني وبلغ منه شأواً عظيماً وان لم يحقق جميع أغراضه . وكان مما يهم له أن يمسح على المعاني القرآنية روح العصر الحديث . فقد فسر مثلا الطير الابابيل المذكورة في سورة الفيل بأنها ميكروبات نزلت بالناس فأحدثت المرض الذي فتك بهم . وأن السموات السبع هي ضرب من الكواكب ونحو ذلك . ولقي الشيخ محمد عبده عنتاً عظيماً من علماء الازهر لاجتهاده ومخالفته المأثور

ويعد قاسم امين في طليعة العاملين للحرية في مصر فقد تربى باوروبا واشتغل بالقضاء في مصر . ثم قابل أحوال العائلة عندنا بما هي عليه في اوروبا وعزا ضعف الاخلاق والجهل الفاشي بين الناس وسوء التربية المنزلية الى حجاب المرأة . فدعا الى السفور . وأنكر ان الاسلام يحتم حجاب المرأة . وقد أحدثت دعوته ضجة كبرى بين المصريين حينئذ ولكننا نعرف الآن حكمة هذه الدعوة ونشعر أن كل يوم يمر على امرأة مصرية محجبة هو يوم لا يكسب من حياتها وهو خسارة على الامة بأجمعها . ومن الغريب أننا سبقنا الاتراك الى القول بحرية المرأة وسبقونا هم الى العمل بها

ومنذ خمسين سنة تقريباً ترجم فرح انطون كتاب رينان

عن المسيح ، واشتبك مع الشيخ محمد عبده في جدال بشأن الحرية الفكرية في الاسلام والنصرانية . وقد انتفع قراء العربية بكلا هذين العملين من حيث استضر بهما فرح. فأن رينان ترجم لحياة المسيح كأنه انسان لا يمتاز عن سائر الناس الا بخلقه العظيم وذكائه الحاد ونفسه الوديعة فكانت هذه الترجمة كشفاً جديداً بشأن الحرية الفكرية، فقد سار فيه فرح انطون شوطاً بعيداً في كتابه « ابن رشد وفلسفته » وأظهر القراء على الاضطهادات الدينية القديمة سواء من النصرانية أم من الاسلام

وفي هذه السنين أيضاً كان المقتطف يلقي في اذهان القراء نظرية التطور ويبدي ويعيد فيها شهراً بعد شهر حتى اشربت عقول طائفة كبيرة منهم بهذه النظرية، فتجرأ الناس بذلك على نقد الاساطير

ولما احتلت بريطانيا مصر وجعلت اللورد كرومر عميدها فيها استبحرت الحرية الفكرية في البلاد حتى كانت مصر محط بعض المضطهدين . وكان اللورد كرومر رجلا مثقفاً بالثقافة الاغريقية يشق على مثله ان يقيد الافكار الحرة : ولكن جاءت بعده طائفة من الجنود والسياسيين كانوا بعيدين عن الثقافة، فضيق في عهدهم على الصحف المصرية حتى كانت المجلة العلمية لا يؤذن باصدارها الا بعد تحريات واستقصاءات قد ينتهي عزم صاحبها وهناً وسأماً قبل أن تنتهي الاجراءات الخاصة بالاذن له باصدارها .

ومن القيود التي تغل الحرية الفكرية ايضاً منع تمثيل أي دوامة على المسرح ما لم تقرها الحكومة . فاذا وجدت أية اشارة تعتقد أنها تخالف ما تحب من آداب أو اديان أو أنظمة منعت الدرامة من التمثيل

ومن اقرب حوادث الاضطهاد الديني في مصر حادثة الشيخ علي عبد الرازق . فقد كان عالماً من علماء الازهر وقاضيا شرعياً،فوضع كتاباً عن الخلافة قال فيه إنها ليست أصلا من اصول الاسلام وإن الخليفة حاكم مدني لا غير ، فعوقب على هذا الكتاب بتجريده من العالمية وفصله من المحاكم الشرعية . وحدث قبله أن الدكتوز منصور فهمي وضع كتاباً بالفرنسية عن حياة الاسلام فمنع من التدريس بالجامعة اكثر من سبع سنوات . كذلك وضع الدكتور طه حسين كتاباً عن « الشعر الجاهلي » خالف فيه العقائد الشائعة فحاول العلماء ان يمثلوا معه الفصل الذي مثلوه مع الاستاذ علي عبد الرازق

وخلمت مصر الحرية الفكرية في الشرق كله بمطبوعاتها وصحفها،ونبغ فيها كتاب يدعون الى حرية البحث في الدين والعلم والادب. وربما كان ابعدهم اثراً في ذلك منذ بدء النهضة الى الآن شبلي شميل وفرح انطون. فان الاول كان يجاهر بكفره ويسطو على رجال الدين متسلحاً بنظرية التطور . وكان الثاني اديباً له مدخل لطيف الى قلوب الشباب ، كتب عن نيتشه وعن الثورة الفرنسية وعـــن

المسيح باعتباره رجلا وعن الاضطهاد الديني . وكان في تجديده للادب العربي جريئاً مقداماً يشق الميادين الجديدة ولولا أنه دخل في غمار السياسة ودار في إعصارها لانتفع به الادب العربي كثيراً

* * *

لا يبرر الحرية الفكرية سوى منفعتها

ولا يبرر تدخل الحكومة ومنعها للناس من حرية التفكير سوى حقها في الدفاع عن النفس وحماية الجمهور من أذى مباشر . اما اذا كان الاذى مقدراً في المستقبل البعيد فـلا يصح للحكومة أن تتدخل . فليس للحكومة مثلاً ان تمنع خطيباً يتكلم عن فوائد الاشتراكية وأفضليتها للنظم الحاضرة ونحو ذلك ، ولا يمكنها ان تعتمد في منعه على ان لهذا الكلام أثراً في أذهان السامعين قد يدعوهم الى الهياج في يوم ما . ولكن لها ان تتدخل اذا وقف هذا الخطيب ودعا الناس الى الثورة على الاغنياء وطردهم من دورهم والاستيلاء على املاكهم . لأنه في الحالة الاولى يشرح نظاماً ويقابله بالنظام الراهن ويقول بأفضليته عليه ولكنه لا يحض الجمهور على التسلح ومفاجأة الناس بالثورة، واذا كانوا هم قد اقتنعوا بصحة النظام الجديد الذي شرحه لهم وفساد نظامهم فلهم من برلمانهم باب لتحقيق هـذا النظام ولا يمكن ان يحمل الخطيب تبعة هياجهم : اما في الحالة الثانية فالدعوة الى الهياج صريحة والجمهور ينقاد الى

الخطيب المهيج ويستأنس بألفاظه العالية كما يستأنس القاتل بسيفه . فهو هنا مسؤول عن الهياج والحكومة مطالبة بمنعه

ويشق علينا ان نميز بين الحالات التي يؤدي فيها هذا التفكير الحر الى الهياج المباشر الصحيح وبين تلك الحالات الاخرى التي لا يؤدي فيها الى ذلك . ولنضرب عدة أمثلة :

فهناك مثلاً خطيبان مرشحان للنيابة عن دائرة انتخابية في البرلمان . أحدهما له كثرة ساحقة فهما خطب وأسرف وطغى في خطابته لا يجد من يناقضه . ولكن منافسه له قلة صغيرة جداً ، فاذا نطق بكلمة عدت كفراً أو أثارت حوله ضجة وهياجاً . ففي هذه الحالة نجد أنه وان كانت كلمات هذا الخطيب تحدث هياجاً إلا أننا نرى الحكومة مطالبة بحمايته هو ومنع الهائجين من هياجهم ، لأنه انما يتكلم عن قلة ولهذه القلة الحق في شرح آرائها والذود عنها وان كان في هذا إغضاب عظيم للكثرة

وهناك مثلاً درامة تمثل على المسرح يشرح أحد أشخاصها مساوىء نظام الزواج الراهن أو حجاب المرأة أو نحو ذلك . وقد يستثير بمناظره هياجاً بين النظارة . ولكن الحكومة مطالبة مع ذلك بمنع الهائجين والزامهم السكوت وليست مطالبة بمنع التمثيل

ففي كلتا الحالتين نجد هياجاً مباشراً أساسه خطبة الترشيح للنيابة وأقوال الممثلين . ولكن هذا الهياج غير قائم على أساس صحيح . لأن الجمهور الهائج ناقص التربية يستند الى

اغلبية أو تقاليد مغروسة وتأديبه وإلزامه السكوت واجب حتى لا تستبد الكثرة بالقلة . ويمكن ان يقال لذلك الجاهل الذي لا يستطيع ضبط نفسه : خفف عنك ورفه ولا تحاول الذهاب الى دار التمثيل أو إلى حيث تسمع تلك الخطبة التي تكرهها

وليس ينكر أن للحرية الفكرية مضار ولكن ليس شيء في العالم تجنى منه فائدة دون ان يكون له ضرر . وضررها هذا لا يمنع الناس من الانتفاع بها . فقد يقف خطيب مفتون مهووس يعتقد ان الوحي قد نزل عليه وان قيام الساعة قد أزف فيحمل الناس على ترك أعمالهم ، بل على الانتحار تعجلاً للساعة . وقد يطيعه بعض المفتونين في ذلك . وقد فعل المهدي السوداني شيئاً شبيهاً بهذا وجعل من السودان جحيماً اكثر من عشر سنوات . ولكن هذه حالات شاذة اذا تفاقمت ورأت الخاصة في الامة ان الأذى واضح لجأت عادة الى ما تلجأ اليــه عند غارة احد الامراض الوافدة كالكوليرا بوقف الشرائع واعلان الاحكام العسكرية ..

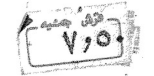
وانما استقر المفكرون على ضرورة الحرية الفكرية وعلى ضرورة التسامح في ما يحدث منها من الاضرار ما دامت هذه الاضرار غير فادحة . لأنه ثبت ان هناك آراء منع الناس من القول بهــا كانت صحيحة ، وكان المانعون أنفسهم هم المخطئين . وهذا هو المعقول لأن السلطة التي



يقـــدم سلامه موسى على صفحات هذا الكتاب ، الحميم لقلمه ، الحزين لقلبه ، قصة من أروع قصصه ، هي قصة الحرية الفكرية وأحرارها على مر العصور ، في الشرق كما في الغرب . وهو يختم كتابه بفصل له معناه ، هو : « في تبرير الحرية الفكرية » .

وهو يقول : « ان التفكير لا يكون حرا طليقا حتى نستطيع الافضـــاء به الى غيرنا . لان الفكرة طاقة ، أى قوة من قوى الذهن ، لا تزال منحبســـة شأنها شـــأن جميع القوى المنحبســـة ، تعذب الذهن ، حتى تنصرف بالعمل ، أى بالتصريح بالفكرة .

« ومع ذلك ، فان التاريخ يثبت أن معظم الذين باحوا بما في صدورهم مما اعتقدوا حقيقة نالوا من الاضطهاد بالتعـــذيب أو الحبس أو القتل الشىء الكثير . » .



المستقبل بالفجالة والإسكندرية
ومؤسسة المعارف ببيروت